كيف ترتقي في قراءة القرآن

سلسلة بحوث حول كتاب الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

لمؤلفه عبد الباقي يوسف

فهرس الكتاب

بو كحيلي سيف الدين	من ثلاثية التلقي القرآني إلى رباعية الارتقاء
رولا عبد الرؤوف الحسينات	كتاب أوصلنا إلى قطاف مثمرة
غادة هيكل	قراءة موضوعية في كتاب الارتقاء
نجاة بلهاشمي	صورة المرأة في كتاب الارتقاء
غادة حلايقة	حداثة الطرح القرآني برؤية عصرية تشويقية
أمين خالد دراوشة	تأملات قرآنية في كتاب الارتقاء
د. مصطفى عطية جمعة	القرآن إثابة وتربية وسموّ
محمد المشهوري	التلفظية ومستويات التلقي
أثير محسن الهاشمي	الأنساق المهيمنة في كتاب الارتقاء
أندره عيد قره	مرتبةٌ الفهم الصحيح للقرآن في كتاب
محمود أحمد حسانين	كتاب في كيفية الارتقاء القرآني
د. سليم القسطي	منهجيّة الفهرس وروح الكتاب

يحتوي هذا الكتاب على سلسلة بحوث ودراسات حول كتاب

(الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) لمؤلفه عبد الباقي يوسف

والذي صدرت طبعته الأولى عن الاتحاد الاسلامي في إقليم كردستان

سنة ٢٠١٤

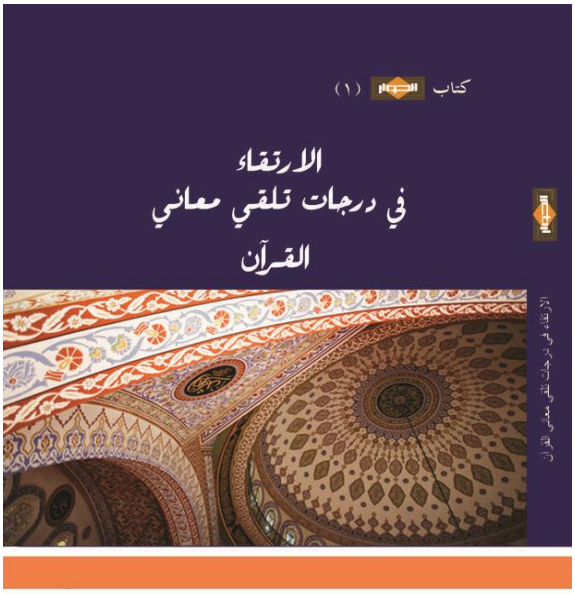

من ثلاثية التلقي القرآني إلى رباعية الارتقاء
قراءة في كتاب: الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

بوكحيلي سيف الدين

جاء في كتاب "الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن "في قسمه الثاني "فصل القرآن على الانسان في الفصل الثالث منه قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة" ما يلي : في هذا الفصل سأتحدث عن العين لتكتمل ثلاثية التلقي و التفاعل لمعاني القرآن الكريم ودلك بعد ان تحدث عن العقل الذي يفكر بما يبلغه و اللسان الذي ينطق بما يبثه إلىه العقل وهنا تأتي العين التي تقرا القرآن فيتلقى العقل ما قرأته العين ثم يبث بما يبلغه إلى اللسان وهذا اللسان يكون موجها إلى الاخرين في عملية التداول المعرفي من جهة و التطور الفكري والحضري من جهة أخرى (الصفحة ١٧٤ –١٧٥). هذه هي ثلاثية التلقي التي تساعد المتدبر في القرآن على ارتقاء في درجات معانيه الزاهية. العقل اللسان العين هي اضلاع مثلث قائم على القرآن وآياته. ثلاثية ادا اكتمل فيها العقل المدبر واللسان الذاكر والعين المبصرة وصل

الانسان إلى ارقى درجات المعرفة القرآنية وصار القرآن هوائه الذي يتنفس وغايته المنشودة في هذه الحياة التي منهاجها هذا الكتاب المقدس العظيم هدى للعالمين.
في هذا البحث البسيط سنحاول تحليل هذه الثلاثية حسب مجيئها في مؤلف الاستاد عبد الباقي يوسف فبدا بالعقل وثنى باللسان في فصل واحد المرتب ثالثا في القسم الاول من الكتاب والمعنون "خصائص العلاقة بين الارسال الالهي والتلقي البشري".
ثم انهي ثلاثيته بالعين في فصل ثالث ايضا لكن في القسم الثاني بعنوان : "قارئ القرآن و مهارة قوة الملاحظة".

العقل والخطاب القرآني

ان العقل اهم اضلاع ثلاثية التلقي هو الذي حدد ايضا ثلاثية أخرى في علاقة الارسال الالهي بالتلقي البشري : "تتمتع خصائص هذا الارسال من خلال ثلاثية هذه العلاقة بين الله كمرسل وبين الرسول كمبلغ وبين الناس كمتلقين بمزايا الخطاب اللغوي الذي هو تكريم للإنسان الذي اكرمه الله تعإلى بقيمة العقل ثم وجد خطابا لعقله هذا العقل الذي تكلل بنعمة اللسان الذي ينطق عنه وهو يخاطب عقلا اخر فيكون حديث الناس حديث العقول للعقول (ص. ٤٧.
ان العقل الذي يميز به الله الإنسان خليفته في الارض على سائر الكائنات. فاالعقل مخزن كل فهم ودونه لا يستطيع قارئ القرآن ان يلج للمعاني انسانية لهذا الذكر الحكيم. وقد ذكر الكاتب آيات عديدة وبالضبط اثنتا عشرة آية كريمة جاء فيها العقل " يعقل" رمزا هاما في اختلاف الناس فيما بينهم. فالخطاب القرآني موجه للإنسان وليس لمسلم او لمؤمن. القرآن كتاب العالمين و من كانت لهم رجاحة عقل وفطانة لب فإنهم يستطيعون فهم معاني القرآن الكريم. فان كانت الأنعام لا تفقه شيئا "ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون" (الأنعام ٣٢)
القرآن يزخر بذكر العباد، رمز منهم اتبعوا رضوان الله فسعدوا في الدارين ورمز صاروا بالأنعام بل هم اضل سبيلا وكان الشقاء دأبهم في الحياتين.

بعد ذكر الكاتب الآيات دون ان يشرح معانيها لأنها واضحة كتب خلاصته قائلا "بعد قراءة هذه الآيات تدرك ان الانسان يرتقي في درجات تلقي معاني القرآن الكريم على قدر ما يمتلأ من توظيف طاقته العقلية بشكل إيجابي فيمسي القرآن بالنسبة له كتاب تحولات كبري في محطات حياته، وعند داك يقال عنه بأنه انسان عاقل. فالعقل نعمة وكذلك ان يؤدي صاحبه إلى المهالك ادا استخدمه في سبل منحرفة (ص. ٤٩).

العقل هذه النعمة التي حيرت العلماء وراحوا جاهدين إلى تعريفها. وقد ذكر عبد الباقي يوسف تعريفات عديدة لعلماء مسلمين وآخرين فذكر مفهوم العقل عند ابن خلدون والكندي والرازي والفارابي وابن سينا وأرسطو والشافعي والشيرازي (صص. ٥٠ – ٥١). ولم يختلف العلماء في تعرفهم للعقل فحسب بل تباينوا ايضا ف موقعه فاكترهم يري ان الدماغ هو موقع العقل هم الحكماء اما معظم الفقهاء يرون ان القلب هو موقع العقل (ص. ٥٢). وقد وجد الكاتب تشبيها بديعا لهذا العقل فقال : "من هنا يمكن مقارنة العقل ببدرة الزهرة التي تنبغ وتتفتح و تنشر شداها في الافق في تربة و مناخين صالحين و تلبث في ارضها دون ان تتفتح في تربة و مناخ صالحين [...]. وقد اجاد الكاتب في الاختيار لهذا اتبع هذا التشبيه بتعريفات العقل عند اهل العلم والادب وهي تعريفات تبين هذه النعمة المهداة .فنجد كلمات الاحنف بن قيس والريحاني وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن المقفع وأفلاطون وشكسبير ومحمود العقاد وجون لافتتين وسقراط وأفلاطون وابن المعتز والزهري (صص. ٥٣ – ٥٨). ويستوقفني كلام توماس جاي هيدسون: "كما ان العقل يجب ان يحرث ويزرع قبل ان نأخذ منه محصولا فكذلك يجب ان يعد العقل ويجهز للنجاح" (ص. ٥٤). وهو كلام سليم: فمن عاش في مجتمع جاهل لا يعطي للعقل قيمته فانه مستحيل ان يفهم معاني القرآن ويرتقي في درجاتها. فالعقل ابن البيئة: وان كانت البيئة صالحة صلح الانسان فالرسول "ص" انشا امة،كانت خير امة اخرجت للناس وكانت قبل زمرا من البشر تعبد اوثانا وتأتي الفواحش فلما هيأها بالقرآن راحت تنهل من معانيه وتشرب من كوثره، امة عرفت معنى الدين لأنها عقيدتها قامة على

رجاحة العقل لهذا قال الحسن بن علي: "ما تم دين رجل حتى يتم عقله". (ص. ٥٦)

ان العقل اول ضلع من مثلث الارتقاء ف درجات معاني القرآن، انه مصدر الإنسانية والإنسان يفتقد الى عقل راجح لن يصل قط الى الفلاح "الانسان هو عقله، والإنسان بدون عقل يفقد الكثير من مزايا انسانيته، ولذلك فلا ينظر إليه ايضا على انه انسان متكامل سواء في المجتمع او في التشريع السماوي او القانون الوضعي" (ص. ٥٨).

لهذا كان الخطاب القرآني موجها للعقلاء والعاقلين، و كم هو زاخر قراننا العظيم بآيات ترددت فيها جملة "اولي الألباب! وبعد العقل، يجيء اللسان الذي وضع له الكاتب جزءا هاما من الفصل. (ص. ٥٩)

اللسان و دائرة التلقي القرآني

منذ البداية، نري ان الكاتب يبين قيمة اللسان في ثلاثية التلقي، فقال : "ربط القرآن الكريم بين العقل واللسان فجعل مسؤولية اللسان كمسؤولية العقل .... الانسان هو لسانه واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة انسان يقود لسانه وثمة اخر ينقاد خلف زلات لسانه وهناك زلات لسان احدثت وقائع و احداث كبري في التاريخ البشري". (ص. ٥٩). ان هذا الكلام قرأنا مثيله حين تحدث الكاتب عن العقل. فالعقل هو الانسان والعقل سلاح دو حدين، كما اللسان ايضا. و لقد اتبع عبد الباقي يوسف المنهج نفسه حين تحدث عن الانسان، فذكر ستة آيات تتحدث عن اللسان، فتصف الكاذبين الذين يستعملون هذا العضو الحساس للبهتان ويصف المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم (سورة الفتح). اللسان مصدر كل شر : الكذب، النميمة، الغيبة والفجور. (صص. ٦٠ –٦١)

ثم راح الكاتب يتحدث عن اللسان كعضو مقدما تعريف عالم اللغة الفرنسي دي سويسر (صص. ٨١ – ٨٢). وبعد الآيات، ذكر الكاتب احاديث عديدة، ١١ حديثا بالضبط، نختار من بينها ما رواه الترمذي عن رسول الله "ص" انه قال : لا تكتروا

الكلام بغير ذكر الله، فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وان ابعد الناس عند الله القلب القاسي" (ص. ٦٤). وهذا الحديث يظهر قيمة اللسان في ثلاثية التلقي، فلقد خلق اللسان لذكر الله و التعرف لمعاني القلب يلين الفؤاد و يفتح بصيرة الانسان، فيتوجه إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر الكاتب احاديث حول اخس افات السان الملعونة وهي الغية (صص. ٦٤ – ٦٨). وقد قدم لنا علاجا لهذا الداء الفتاك وهو الصمت الذي هو خير قليل فاعله، فهذا طاوس بن كيسان يقول : "اني جربت لساني فوجدته لئيما راضعا ". (ص. ٦٧).

هذا هو اللسان الذي ساعد على انتشار الاداب و الافكار، لكن الكاتب بين ان للقران اثره الجلي على سائر الوان و اجناس الاداب و الفنون الانسانية فقال : ".... يمكنني ان اصنف هذه المنجزات الفكرية الانسانية إلى مرحلتين انعطافيتن : مرحلة ما قبل نزول آيات القرآن ومرحلة بعد النزول" (ص. ٦٨).

إنّ القرآن كلام الله الذي لا يأتي مثله أحد، واللسان الذاكر لآيات الذكر الحكيم يصل إلى درجات سمو انساني. وقد ذكر الكاتب ان في القرآن امرا هاما في تكوين الاجيال التي تقرا القرآن بتدبر وحكمة وتسعي إلى فهم معانيه القيمة. انه المثل الذي حضي بمكانة كبيرة في صفحات الذكر. وقد ذكر الكاتب خمسة عشرة نورانية، ضرب الله فيها امثالا حول امم عاشت قبلنا وحول الجنة وحول القرآن وحول الشيطان وحول اهل الكتاب وحول الكافرين وحول المؤمنين (صص. ٧٢-٧٤) ليصل الى نتيجة هامة وهي ان المثل : "شكل من اشكال التلقي القرآني الذي يتفاعل في الناس بقوة و يترك اثره بقوة، دلك انه منبثق من بلاغة القرآن". (ص. ٧٥) وقدم لنا الكاتب في صفحتين (٧٧-٧٨) قائمة من الأمثال يستعملها الناس في حياتهم اليومية، يتفاعلون معها في وقائع حياتهم فتصير لغتهم في جل شؤونهم. والمقصد من دلك كما وضحه الكاتب هو " التعقل و لتدبر والتفكر" (ص. ٧٩) ، لان الله في حاجة للعبد الذي يرتقي في درجات تلقي المعاني، وليس اللسان الذاكر من يقرا القرآن دون وعي، بل هو ادي يسارع إلى التفقه في الآيات والغوص في

معانيها، انه يشبه اداة الوصل بين القرآن والقارئ" (ص. ٧٩) الذي يعرف قيمة الامثال في الحياة بما تحمل من معاني قيمة.

ولهذا الغرض، خصص الكاتب في جزء ثان من هذا الفصل صفحات تحدث فيها عن بلاغة المعني في المثل القرآني. فاللسان الذي يردد كل يوم و ليلة اي القرآن دون تدبر فكأنما يسافر في الصفحات، ويرجع بِخُفَّيْ حنين فالله سبحانه وتعالى يحتاج للسان الذي يقرا بتمعن مثل هذه القراءة تجعله يشعر بأنه يتداوى به، والذي تصيبه مصيبة كبري فيجد متنفسا عن نفسه ولهذا يبتغي ذكر ربه في السراء و الضراء. يلجا إلى القرآن فيشعر قلبه بطمأنينة ذكر الله. (ص. ٨٠).

ذكر الله القرآن او النور الذي هو احدي اسماء القرآن واحدي اسماء منزل القرآن، لهذا فأول مثل خصصه الكاتب للشرح هو آية "الله نور السماوات والأرض" (صص. ٨٢ ٨٣). وجمالية لغة الخطاب القرآني تظهر ايضا في مثل شجرة الكلمة، دلك ان الكلمة يمكن لها ان تسبب مسرة ويمكن لها ان تسبب جرحا، ويمكن للشجرة ان تقدم وردا يؤدي إلى مسرة ويمكن ان تقدم شوكا يؤدي إلى جرح (ص. ٨٤). ولعل اسمى الكلمات الطيبة القرآن الكريم الذي يؤتي الله كل حين ادا ما تدبر فيه الانسان وكان لسانه ذاكرا متفكرا.

ثم انتقل الكاتب إلى مثل الماء و الحياة (صص. ٨٦–٨٨). فالماء ادا اصاب ارضا خصبة صالحة انبت نباتا حسنا وان اصاب منطقة بورا جرداء لم يجن شيئا وكذلك الانسان والقرآن. فكتاب الله لم يتوجه إلى اللسان الذي يقراه دون وعي بل اوصى الله بقراءة القرآن بلسان يفكر في معنى الآيات القولية.

اما اخر مثل ذكره الكاتب فهو سنبلة الصدقة الذي هو قياس على عبادات اخرى فان كان الله لا يحتاج إلى صدقة فيها رياء وتتبع بالمن والأذى فهو لا يحتاج ايضا إلى قراءة انسان يتلو الآية حتى يقال انه قرأ القرآن. ان الله غني عن قراءة سطحية تردد فيها الكلمات خاوية دون معان.

ولقد كانت خاتمة الكاتب لهذا الفصل الذي خصصه للعقل واللسان قيمة فقال :"مع قراءة القرآن يقربون إلى احساس عميق بمسؤولية ورهبة القرآن. اننا نشعر بعظمة

الكلمة ارسالا وتلقيا. ونكون قد تهيأنا جيدا حتى نتلقى الكلمة (ص. ٩٢). بالعقل اولا ثم يذكرها اللسان لتراها العين ثالث ركن التلقي القرآني

العين ثالث ركن في التلقي القرآني

إن العين هي التي تساعد المؤمن المواظب على تتبّع المواقف والأحداث ومالتفقّه في خفاياها، "لأنها العضو الأكثر حركة في الجسد، وهي العضو الأكثر حساسية، وعن طريق العين تنفعل الأعضاء كلها سواء سلبا أو إيجابا" (ص. ١٧٤). إن القرآن مليء بالأحداث التي تعين المرتّل لكلماته أن يرتقي في درجات المعرفة التي تنو وتزدهر بالنظر السليم والتبصّر في المواقف آخذا العبر. ولقد ذكر عبد الباقي يوسف جملة ن الآيات التي تدعو قارئ القرآن إلى النظر إلى خلق السموات والأرض، وآلاء اللّه، والأنعام، وتحثّه إلى الإتساء بمن سعدوا، واجتناب سبل من خسروا الدنيا والآخرة. (صص. ١٧٥-١٧٦).

ولقد أعطى لهذا الجزء عنوانا بديعا: "فقه العين" وكأنّ الكاتب يبرهن أنّ هذا العضو محاطا بمعارف وجب التفقّه فيها. إنّه عنوان يذكرنا بفقه العبادات حيث العين تتبصّر في ما يقرّبها من الله وفقه السيرة حيث المقلة تتبع حياة المصطفى "ص" وفقه النزول للغوص في أسرار القرآنقال فالكاتب: "العين المواظبة على قراءة القرآن تمسي عينا قرآنية. تنظر نظرات قرآنية مما آتاها الله من نور القرآن. العين المواظبة على قراءة القرآن تأنس النظر إلى كل موطن جمال وتنفر النظر إلى كل موطن قبح، تأنس النظر إلى كل موطن طيب وتنفر النظر إلى كل موطن خبيث". (ص. ١٨١ وذكر الكاتب العين كعضو له تركيباته، وهو مهم في الجسد وخاصة هو عنوان الوجه: "إن وجه الإنسان هو قنديل الباطن، قنديل القلب، قنديل العقل". (ص. ١٧٨). وللعين ألوان ولغات، أهمها ما ذكره المؤلّف: "يدرك القارئ المواظب على قراءة القرآن بأن الحياة تمتلئ بأطياف وألوان الناس" (ص. ١٨٤).

لقد ذكر الكاتب ثلاثية التلقي القرآني (العقل، اللسان والعين)، لكنه أغفل حاسة مهمّة في هذا التلقي الذي بفضله يرتقي العبد في درجات فهم القرآن وهي السمع. وإننا نجد الكثير من الآيات التي تبين قيمة الأذن في التسامي في فهم الكتاب، وضياع من لا يتفقّه من سماع الذكر الحكيم: قال تعالى: "صم بكم عمي فهم لا يعقلون". (سورة البقرة، ١٨). ففي هذه الآية جمع الله الرباعية التي يفتقدها الكفار الذين هم صم عن الحق فهم لا يسمعون، – بكم عن الصواب القرآني، فلا ينطقون به ولا يرتلونه ، عمي عن الهدى الرباني فلا يبصرونه ولايستعملون ألبابهم في كشف القرآن. وقال تعالى في سورة الحاقة: "وتعيها أذن واعِية" أي أذن عقلت عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتابه العظيم.

وسنختم بذكرنا – كما فعل الكاتب – آيات تبين قيمة الأذن أي السمع في التلقي القرآني:

"ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا اساطير الاولين" سورة الأنعام، آية ٢٥

"ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون" سورة الأعراف، آية ١٧٩

"ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا" سورة الكهف، آية ٥٧

وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه لعلكم تغلبون"(سورة فصلت، آية

"ولو جعلناه قرانا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد" سورة فصلت، آية ٤٤

"يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها فبشره بعذاب اليم"سورة الجاثية، آية ٨

"ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وافئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون" سورة الأحقاف، آية ٢٦

"وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا" سورة الجن، آية ١٣

كتاب أوصلنا إلى قطاف مثمرة

رولا عبد الرؤوف حسينات

الأردن

سبيل الارتقاء القرآني في مواجهة التطرف

بهذا المدخل، أتحدّث عن هذا الكتاب الجديد الذي بين يَدي، لأقول بأن الناظر للخريطة العامة للمعمورة بأهليها على اتساع الرقعة الامتدادية للوجود الإسلامي، يجد الشخصية المسلمة التي أثبتت وجودها من قبل ألف واربعمائة عام، حيث ولجت إلى دين الرحمة السماوية لتذرئ عنها أعباء المادية ..العبودية..الظلم والفجور، على الرغم من تباين العوامل الأيدلوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتفاوتة لصقلهم معا ولو شئت، ولكنها بولوجها إلى بؤرة الإسلام شكلت الشخصية المسلمة،

بإحداثيات ثابتة تميز الدين الإلهي خاتم الأديان السماوية للسلام والطمأنينة، الحوار والتبادل الثقافي، التسامح والعدالة والمساواة على كافة الأصعدة وفي كل المحاور..

غير أن تشتت نهج السلوكيات الفردية، الذي ما لبث أن غذى سلوكيات جماعية حملت مسمى إسلام...والتي ساهمت بفرز نوعي لأجيال متباينة جيلا من القائمين على التفرد النوعي المميز للفرد ضمن المنظور الوسطي، وجيلا حمل المنظور التطرفي وقد اشرئب من نوازع ظالمة لتسمى فيما بعد بالإرهاب الإسلامي..

فالتطرف في اللغة: هو الوقوف في الطرف ، هو عكس التوسط والاعتدال ومن تم فقد يقصد به التسيب أو المغالاة ، وإن شاع استخدامه في المغالاة والإفراط فقط، والتطرف كذلك يعني الغلو وهو ارتفاع الشيء ومجاوزة الحد فيه، وفي المصباح المنير: غلا في الدين غلوا من باب تعد أي تعصب وتشدد حتى جاوز الحد.
فالتطرف هو الميل عن المقصد الذي هو الطريق الميسر للسلوك فيه، والمتطرف هو الذي يميل إلى أحد الطرفين.

التطرف في الاصطلاح: يرتبط بأفكار بعيدة عن ما هو متعارف عليه سياسيا واجتماعيا ودينيا دون أن ترتبط تلك المعتقدات بسلوكيات مادية متطرفة أو عنيفة في مواجهة المجتمع أو الدولة. ويرى البعض أن التطرف يحمل في جوهره حركة في

اتجاه القاعدة الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية، يتجاوز مداها (أي الحركة) الحدود التي وصلت إليها القاعدة وارتضاها المجتمع[1].

إن التفريق بين الإرهاب والتطرف هو مسألة جد شائكة ، وذلك لشيوع التطرف والإرهاب كوجهين لعملة واحدة ، ومع ذلك فتفرقة ضرورية، ويمكن رسم أوجه الاختلاف بينهما من خلال النقاط التالية:

التطرف يرتبط بالفكر والإرهاب يرتبط بالفعل كيف ذلك؟

إن التطرف يرتبط بمعتقدات وأفكار بعيدة عما هو معتاد ومتعارف عليه سياسيا واجتماعيا ودينيا دون أن ترتبط تلك المعتقدات والأفكار بسلوكيات مادية عنيفة في مواجهة المجتمع أو الدولة ، أما إذا ارتبط التطرف بالعنف المادي أو التهديد بالعنف فإنه يتحول إلى إرهاب ، فالتطرف دائما في دائرة الفكر أما عندما يتحول الفكر المتطرف إلى أنماط عنيفة من السلوك من اعتداءات على الحريات أو الممتلكات أو الأرواح أو تشكيل التنظيمات المسلحة التي تستخدم في مواجهة المجتمع والدولة فهو عندئذ يتحول إلى إرهاب.

---

[1] باحث في العلوم السياسية متخصص في قضايا الإرهاب بجامعة محمد الخامس، آكدال للعلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية،
www.annabaa.org
Zgor_6@hotmail.com

التطرف لا يعاقب عليه القانون ولا يعتبر جريمة بينما الإرهاب هو جريمة يعاقب عليها القانون فالتطرف هو حركة اتجاه القاعدة الاجتماعية والقانونية ومن تم يصعب تجريمه، فتطرف الفكر لا يعاقب عليه القانون باعتبار هذا الأخير لا يعاقب على النوايا والأفكار ، في حين أن السلوك الإرهابي المجرم هو حركة عكس القاعدة القانونية ومن تم يتم تجريمه.

يختلف التطرف عن الإرهاب أيضا من خلال طرق معالجته فالتطرف في الفكر ، تكون وسيلة علاجه هي الفكر والحوار أما إذا تحول التطرف إلى تصادم فهو يخرج عن حدود الفكر إلى نطاق الجريمة مما يستلزم تغيير مدخل المعاملة وأسلوبها[1]..

وما هي إلا قناعات حامليها.. الإرهاب بذاته بتهيئة منطقية لمفاضلة السلوك.. التي تتبنى تصورا منطقيا في أجندتها العديمة الرحمة، في إنهاء وجود المسلم بذاته بتقتيل المسلمين علانية في أرض الله..ثم غيرهم في أطر ضيقة من الحكم والقضاء في التطهير العرقي، وهي أبعد ما تكون عن الرسالة السماوية التي عمت البشرية، بالسعادة والخير والانجاز والإبداع..

---

[1] المصدر نفسه

وهنا نجد أننا أحو ج بأن نعود للقران الكريم كحكم في تشكيل الشخصية الإسلامية بعلاقاتها المتداخلة مع غيرها من الأمم والعالم الإسلامي، على اعتبارية لا أكراه في الدين..بالعودة إلى

القرآن الكريم والتمعن فيه والتدبر بآياته لإحلال روح السكينة والألفة، بتوسيع قاعدة الفهم العامة المترابطة مع العولمة بأوجهها المختلفة..

أن التقدم التكنولوجي والتقنية المتطورة التي وصل إليها العالم، سهلت منظومة التعميم للنظرة الإسلامية الشمولية من منظور السلم والعدل، بقنوات استثمارية توجه فيها الرساميل للاستثمار في منهجية الدعوة المعتدلة للشباب كونهم سفراء الدين الإلهي..

وقد ناقشت عدد من الكتب فكرة التلقي والرقي بطرائقها وقد تنوعت بأساليب عرضها للدارس وفق معايير متباينة بين السهولة والتعقيد، ومن بين هذه الكتب التي فصلت فكرة التلقي

نعت الدرجات لتلقي القرآن والقراءات :

للكاتب: صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي ويحمل الكاتب في مضمونه ما يجب أن يتصف به الطالب والدارس في أدب القرآن الكريم وتلقيه والحرص على الرقي في تقانة التجويد ومخارج الحروف وتعرض للقراءات العشر والقراءات غير العشر .

دراسة نقدية في ضوء نظرية التلقي الحضور القرآني والصوفي في"مواقف الألف" للشاعر أديب كمال الدين... كيف نفهم القرآن الكريم؟ دراسة في كيفية فهم المتلقي

للقرآن الكريم ..وقد تعرض بطريقة سلسة لأساليب الإقناع في القرآن الكريم، ووسائل وأساليب الإقناع في الرسالة الاتصالية ... للكاتب : عبد السلام بن إبراهيم بن محمد الحصين.

للمتفحص بماهية الطرح لمجموع هذه الكتب التي وقفت على قضية المتلقي وآلية تلقي النص القرآني..بوسائط ناقلة تتباين في الأسلوب والنمطية والانبعاثات العاطفية أو القلبية.. نجد أنه أسهبت بشكل مستفيض بقضية بحثية، تمايزت وكيفية طرح الكاتب السوري عبد الباقي يوسف وهو تشكيل لقضية خصص لها كتابا مفصلا محكما في طرحه وغايته، ليس منوطا بكيفية التلقي بل والارتقاء في تلقي معاني القرآن الكريم، بسلاسة تفقهية مقربة بل محببة للقلب..حيث لم يعمد الكاتب إلى تعقيد الصورة في الطرح بل تبسيطها، ليصل إلى أكبر شريحة مسلمة كانت أم غير ذلك..

بأسلوب دعوي لمتشوق عاشق للقرآن سابح بترتيله أناء الليل وأطراف النهار.. ما جنح لرخامة اللفظ والتعقيد بل انسيابية مريحة من الملقي للمتلقي..ليعتلي درجة متقدمة من التقييم..من حيث القبول والقراءة بل وإعادة قراءة الكتاب لأكثر من مرة بعيدا عن الملل..

كيف لا وهو يمحص بحذاقة آيات الله ليفرد تلامسها الحياتي مع كل مفردة سلوكية كاستجابة أو كسلوك فطري.. عبد الباقي يوسف روائي وكاتب سوري تفرد بأسلوبه الروائي بطرحه الكتاب

وسهولة التبحر في عبابه والانتشاء بقيمه.. له العديد من المؤلفات الروائية والناقدة والكتب الإسلامية..

مبرزا لنا حصيلة فكرية متقدة مبسطة في منهجية التلقي ذاتها بين أصول البنية التكوينية للتواصل بين الملقي والمتلقي وماهية الكتاب، الذي يتداول فيه موضع الإلقاء بطرائق لم تكن عبثية في اختيار أوجه البحث، ليحمل هكذا عنوان يناقش فيه النص القرآني من منظور موضوعي عقلاني.. وعرض ذلك من خلال فصلين..

(نور السماء إلى ظلمة الأرض) و(فضل القران على الإنسان) .. لعلني أستفيض وروح الكاتب بدلالته وطرحه من روح معطاءة عميقة، في الدلالة والاستدلال على واقع الصلة بين القرآن والمتلقي، وهو ليس كأي كتاب يُملُّ ويهجر إنما كتاب متطور في الطرح متوافق بين كل معتركات الحياة بشرائع ونصوص واليات تفكريّة..وهو الكتاب المتجلي إنسانه فيه، من حيث النوعية القرائية أو المغزى من التدبر والدعاء والغاية الاستدلالية التي تنمي تلكم العلائق العميقة بين القرآن ومرتله..

وقد تعددت القراءات لتتوافق واحتياجات الفهم والإدراك لجميع المسلمين حول العالم، من حكمة يقينية من الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم، وفق منهجية السلاسة في النطق اللغوي ليتوافق و مخارج الحروف وليكن القرآن سلسلا في التعايش اليومي..

وهو الكتاب السماوي الذي ما كان نزوله على سيد المرسلين وخاتم النبيين إلا هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فيفرض الطريق اللاحبة ظلاله على حامله ليرقى به إلى حالة من التوازن العاطفي والعقلي، في جميع مجالات الحياة.

لقد قدم لنا الكتاب مقومات التشويق المحاكي لنسيج الحياة، متغلغلا في شعفات لفائف متراكمة من التلقي النوعي المعرفي..

فهو الإنسان المنوط به المسؤولية، المستخلف في الأرض..مذللة له بالكيفية التي يرضاها بفطرته السليمة ليقدم قرابين الشكر لله تعالى على هذه الهبة، مستقرئا النصوص متدبرا أحكامها ..لينفذ هبة الله له على أكمل وجه وعلى أحسن صورة، وليستقر أمره بالعبادة حمدا وشكرا لرب السماء والأرض..

يا من هو في الأرض إله وفي السماء إله..ليزداد توازنه مع نفسه ومجتعمه والحياة بأكملها...المشرع مدبر الأمر.. يا من تدبيره فينا عجيب...

التحوّلات الكبرى

استقبلنا الكتاب بالتحولات الكبرى، بمفردة القدرية وما كان لينفعك ما كان ليضرك فكل بأمره، بيده الأمر كله عالم الغيب الرحمن الرحيم ..ليعجل علينا يقين الرحمة الإلهية وهي الفاتحة ومن ثم ليختتم بسورة البقرة وهما هبتا الرحمن من تحت العرش منتان من الرحمة..تلكم السبع المثاني والقرآن العظيم..لنتبتل وإياه في التفحص الدقيق لآياتهما كل على حدا بالمعنى والمقصود، لينطق طاقة العقل المكبوتة المصفدة بغيبية الغاية، إنها ليست مجرد آيات بقدر ما تقوم به من النطق الأجوف للآيات لكنه أسلوبه العقلي في المخاطبة، للتقرب لمنابت الرحمة رحمة الخالق بالعبد الفقير الذي ليس له ملجأ ومنجى منه إلا إليه وإن بلغ هذا الإنسان أعلى المراتب فسيبقى صغيرا أمام عظمة الخالق...

فالرحمة استأثر بها الخالق وجعل للخلق جزيئا بسيطا منها، ليتوب إليه مسيء الليل ومسيء النهار..يبتغون رضوان الله..إنها المصالحة مع الذات لتحقيق التوازن، لتحيل الذنوب إلى نعم بالحسنات.. ووصل بنا الكاتب لمفردات لم تتجاوز تصرفاتنا الذاتية ليعيد إلى أذهاننا أهمية البسملة في كل حال وفي كل زمان، ومع أي أمر لتغير كل مكونات الموجود بقيمته، وكونه من التهذيب الذاتي..

وهيأ لنا هذا الكتاب مرجعية تفسيرية للولوج للنص القرآني من وجهة تفسيرية تقويمية للسلوك الفردي، بتهيئة الجو العام والخلق الكريم في السلوك القويم، وأوجد النقيض ليتنبه العقل بخطأ التضادية السلوكية..

وعليه فقد بنى لنا بنياناً من التهيئة الحسية السلوكية، القائمة على العقلانية المنطقية في ضرورة التواجد المتوازن للشخصية التكاملية، بالسلوك المتعبد في الصلاة أو الصيام وغيرها وأهمية الغاية منها بثورة التفسير..

فقه حدود اللـه في التلقي القرآني

ودرج بنا الكاتب بتفنيد عقلاني في تبيان تقسيم آيات القرآن الكريم التي ما يدرك حصافته إلا متعمق دارس..وقد نهل من جل وقته معرفة خالصة، بيّنها ببضع سطور نغتنم فيها الرؤية المتكاملة للنص القرآني، و أنواع الطرح فيه ليرقى بنا ليس من مجرد قارئ أو مسترسل بعينيه بعلم أم بغيره ليُعدَّنا لنتفقه بأمور ديننا..وإن لم نصل لمراتب المرتلين..

"انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها هي السوابق، والأصول المهمة، وثلاثة هي الروادف والتوابع المغنية المتمة. أما الثلاثة المهمة فهي:

١ تعريف المدعو إليه.

٢ وتعريف الصراط المستقيم، الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

٣ وتعريف الحال، عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة – فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة، ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده: التشويق والترغيب. وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن

الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده: الاعتبار، والترهي .

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم، وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده، في جنب الباطل: الفضح والتنفير، وفي جنب الحق: الإيضاح والتثبيت والتقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد. [1]"مفصلة السوابق والروادف والتوابع المغنية المتمة..

لقد أوجد الأديب اليوسف في كتابه القيّم، بطريقة ما مدخلا لبوابة زمنية تفصلنا عن ترهات حياتنا ، الحدود.. ومن منا لا تشكل له الحدود هاجسا..غاية..عبأ..؟

أي كان ما تشكله الحدود لنا فهي موجودة بواقع جغرافي متأصل الجذور، وإن كان أمرنا مصغرا في البيت الواحد المكتب الواحد..بل السيارة أو الوسيلة التي تنقلنا توجد لنا حدودا بل وللآخرين..تلك الحدود التي لا نؤذي بها أنفسنا والآخرين..فليست لله الحدود وحسب فله ملك السموات والأرض.. يا من هو في السموات إله وفي الأرض إله..إنه تأدبنا في حواريتنا مع الخالق بأدبية الحوار العلاقة التي توصلنا إلى أبواب رحمته، أليست هي مقصدنا ونحن مسافرون نحمل حقائبنا وما كدنا نتبلغ رشفة الماء..

سمو العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

[1] الأرتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم، عبد الباقي يوسف، ص ٢٩...

ليستنير في ظلال قرآنية حصيف في عمله وانجازه، ليقيم الفرد من خلاله هويته مهارته وإتقانه، عبثيته واستهانته أم ازدواجيته وإفراطه، توحده جنونه وبلهه وضاعته وإسفافه، ليثيرنا الكاتب بخاصية جديدة وهي الإبحار في المرئي والمسموع وإعمال الحواس.. ليوظفها ضمن منهجية تأدبية تتأبى على أزقة الظلام والضلالة..ليعرِّفنا بالقليل والكثير أعطانا بشفافية مطلقة النتيجة، بمنحة الرؤية العامة وارتحل بنا إلى تبيان معان العقل من أصقاع ولغات وشتى وجهات النظر ولم يكتف بذلك فقد انبرى يتساءل عن اللسان، وهو أدراك المضمون العقلي بترجمة نصية من الحواس وعلى رأسها اللسان أكثرها تعقيدا بحالاته وانبعاثاته ووصف القران لأهليه لندرك أنه ما يوقعنا في غياهب الجحيم لنكف عنا ألسنتنا، صنائع أعمالنا ومذهب حسناتنا ليحفظه بالسرد علميا ودينيا ويبقى العقل ومكانة القلب بأسلوب مقارب للمخيلة البشرية..

يقول الله تعالى: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق: ١٨].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر اللسان (تذل له وتخضع) تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوَجَجْنَا) (الترمذي). وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يستقيمُ إيمان عبد

حتى يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) (أحمد). وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.[1] وما يقع من أمراض اللسان موغر في الصدر من النميمة والغيبة والكذب واللغو في الحديث والسباب والفجور والمكر والخديعة وغيرها.

إنه الصوم عن كل رذيلة إذ ربط عز وجل الصوم بأن يكون بلا فسق أو فجور والحج، كذلك بل الإيمان ذاته المؤمن من أمن المسلمون من يده ولسانه..وتمتعك بتفرد الولوج للنص القرآني، يبهرك بقدرتك السماعية وإدراك كنه المرسل دون أن تناظره...

لم يكتف الكاتب بالمأثور من القول وترجمان القرآن وتأييده بالسنة الشريفة والصحابة، وما مر من التاريخ لكنه ربطه بالتطور التكنولوجي من وسائط متطورة تفتح قنوات الاتصال على رحابتها، فجعلت لغة التخاطب متنوعة موجهة لترد مساحات فضفاضة في الخطاب، إذ أن القرآن الكريم بكيفية الإلقاء والتلقين هو متكيف متجدد بالقيمة والمنطق..

المقارنة كأسلوب تتبعي للنص القرآني المتمثل فيه ذات الأسلوب، من التوجيه الإلهي ليعتبر أولو الإبصار..فأصحاب النار قبيلهم أصحاب الجنة وأصحاب الدسائس والغدر، يقابلهم أصحاب العلم والدراية والحكمة والإبداع، بكافة صوره في شتى

[1] المصدر نفسه ص٤٤

مناحي الحياة، مقاربة النص القرآني من الحياة العادية لسلاسته وتمكين معانيه..فهو السلوك المعمم بالصواب والصبر والإقبال على الدنيا بالأمل الخير والصلاح..

فالمثل كمناقشة يظهرها بأسلوب ينضح بالجمال والشفافية وشفيف المقصد_بلاغة المعنى في المثل القرآني..

المتلقي لمعاني القرآن الكريم ليس ذلك النص المفرغ جمود الصخر وتخلف الأيام إنما هو نص مرن شمولي بلاغة وحصافة وقصدا ومدلولا ومعنى كلٌّ متكامل منهجا ونصا..كيف لا وهو الرسالة الإلهية خاتمة الكتب السماوية، ليستمتع فيه في كل حين وكأنه يرتل لأول مرة، بكل زمن وكأنه في غيره المكان ...
ومن خلال شروح تبيانه لجلِّ كتابه نأى الكاتب إلى ظلال من تشابيه ومحسنات لفظية ودلالات قلبية وعقلية وبلاغة وكناية وتشبيه تمثيلي التي بمجملها صور فنية بأسلوب سلس متسلسل شيق..نابع من خالص التفقه اللغوي... ببراعة المعلم للمتلقي والشارح للدارس والمتضادات في قنوات الحياة الماء والحياة سنبلة الصدقة...

قارئ القرآن وفقه الموقف

أم سليم الأنصارية والبنية القصصية المفصلة لجدلية الصورة بمفردات شاخصة في التاريخ، لتبرز الفكرة العامة التي أوردها في بداية النص ثم اتبعها إلى مناقشة الخصائص ..للمرأة والرجل على حد سواء مبرزا دورين متساوين متوازيين، ليضرب لنا المثل القدوة في الحياة السلوكية زوجية كانت أم عملية في مناحي الحياة المختلفة وقد أبرز مدى تحرر المرأة المسلمة في البحث العلمي والأدبي والفقهي

والعمل والانجاز والمبادرة والقوة، العنفوان لدى المرأة كلاعب أساسي في مغارب الحياة ومشارقها.. قالت أم سليم قولتها الشهيرة : يا رسول الله اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك . فقال رسول الله: "يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن " ...إنها نقطة البداية التي أوردنا الكاتب إليها لنستبق الزمن ولو لساعة نتساءل فيها من نحن؟؟وما أنت أيتها المرأة كائن الجمال أم كائن معجون من عجينة العطاء والصبر؟؟ ماذا قدمت كل منا لنفسها أولا لبيتها لأسرتها؟؟ما هي نصوص الرسالة المثلى التي تنادي بها كأرضية لرقيها لقيم وجودها؟؟ لقد حفظ الله المرأة بل عنون لها أبواب حياتها ورسم منهجية الوصل الأمن في معتركات الحياة..لقد كانت المرأة متاعا يوما فأمن لها الله تعالى حقها في الحياة والاختيار التعلم والشخصية الاعتبارية و التصرف المالي والميراث وحقها الدعوي التفقهي و منحها كل مقومات أن تبلغ فيها عنان الإنجاز والإبداع مصونة معززة مكرمة..في أطر تحفظها من نفسها أولا ثم الآخرين لتكون ثمينة كما لؤلؤة في جوف محارة ما ينالها إلا الصياد الحصيف..إنها المرأة التي أولاها الله تعالى بنصوص قرآنية لها دون سواها بل كرمها بسورة حملت اسمها..ومن غيرها يعين على فواجع الزمان إنها الكفة المتوازنة بل هي التي ترجح بعقلها ورزانتها ...وهل يقل عن أن تكون كائنا مصونا بقالبه ولفائفه كما نبتة سحرية ما يبين منها إلا عطر فواح؟؟!!

((كل نفس بما كسبت رهينة)).

((هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)).

((واهجرهم هجرا جميلا))[1].

فليكن المرء فينا صاحب الموقف، هي الدعوة الصريحة للإيجابية للمنح للعطاء للبناء وللثبات على الفطرة السليمة المتيقنة بقدرة الله وإرادته، التي يفرزها عميق إسلامه وإيمانه، في الأفعال والقول وغيرها واستنهاض القوة في إيجاد الخطوة المناسبة، وتيقن الخطوة المقبلة التي يفيد منها الفرد ذاته والمجتمع.. ودمجه بحرفيه بأول أولويات التقارب الذهني، لنزعة ملتزمة بالخلق والتركيبة النوعية للنفس البشرية وارتباطاتها العاطفية بالحياء، الذي هو من شعب الإيمان لإتمام النضوج الذهني والسلوكي ليتولى عن الفوضوية السلوكية والغوغائية التي هي تعاليم ربانية بالصورة الشاملة..

معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

أوقفت يوما عند الإشارة الضوئية ؟؟؟وانتظرت لدقائق طويلة في الزحام؟؟ لتنير بأضوائها الثلاثة التي كل منها تعني الكثير لنجاتك ووصولك الآمن لمبتغاك..كل منا هي رغبته في الوصول الآمن..أريت لو كنت غير قادر على إستنارة الطريق وعيناك

[1] المصدر نفسه ص٧٢

معصوبتان..أو لسبب ما ألمّ بك ولم تستطع الوصول للضفة الأخرى من الطريق دون أن تمد لك يد لتساعدك لتميل عليها ميلة واحدة، وأنت كامل الثقة بأنها ستوصلك إلى حيث تريد دون أن تلحق بك الآذى، إنه الطريق الإيماني الذي يبين لك منهج الحياة كلها بخيرها وشرها بل يبدع في تصويرها، تصنيفها..طرق وعثاء قفراء مليئة بالأشواك فيها مجون الدنيا ولهوها وكل شقوتها وإن كانت تمنحك السعادة الخروج عن المألوف لكنه ملك الساعة ومنتهاه التهلكة نار تلظى.. وطريق مليء بالخير والعطاء المنح والأخوة من غير الظلم ولا التظالم..بفطرة سليمة ونهاية في جنة عالية سقوفها دانية فيها كل ما اشتهيت وامتنعت عنه في الدنيا لتنالها في الآخرة وهي دونك ... أوليس هذا الصديق مبدع حقا في منحك الصورة الكاملة لنواتج سلوكك!!؟؟

النهاية كل ما يسعى إليه كل منا معرفة الغيب ما سيحصل معه غدا وإن أتتك النهاية على طبق من ذهب بل جعلت لك إستراتيجيات واضحة لتنال أيما الطريقين....

فقد زيّن الله لك متاع الحياة الدنيا بقوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }آل عمران١٤.

ويخاطب الله نبيه قائلاً[1]: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا }القصص٧٧.

إنه منهج الترويض للأهواء المجنحة للنفس البشرية، ليكون الإنسان سيد الساعة لا عبدها وبالترويض تتمكن من الأناة والخبرة في التقول والقول ذاته ...

إنه الدين الحنيف الذي يرتقي بنا ممفصلا كل جوانب حياتنا..فهو الذي يفسرنا كمرآة وكصفحة ماء، ميولنا تركيبنا مزايانا.. تلكم النزعات الصغيرة والروح فينا

خاتمة المبحث

وجاء هذا الكتاب ليوصلنا إلى هذا الرقي بتهيئتنا لبداية جديدة، لم يتصف نصه لا بالسرد المفزع بمللله بل بيقينه القائم على الروية، وأن يخبر المرء بمتلقيه العارف بأحكام نصه ومذهبه في خلق الانسيابية في براعة، يتميز بجدلية الحوار مع الإنسان كحالة في كل مفردات وجوده، وليس كجملة لم تمهد لتفصل..

فكل ماض بمشيئة الله اللسان التطوري في المشهد، بشحنات من التشويق والإثارة وتفسير المفرد ليس بعفوية تامة بل بعفوية زاوج فيها التفسير المنطقي للمفرد الذي قدر ليكون تفسيرا شرعيا، لمجموعة من السلوكيات الواجبة..القسط والاعتدال كتوجيه للسلوك فقد أكد على الإقساط، وجعل له جزءا بارزا في الحدث في المآكل والمشرب والإنفاق..الغلو في الشيء...

---

[1] المصدر نفسه.

لقد جعلنا بسلاسة طوافين مرتحلين في فيضه كيف لا وهو كتاب معمق البحث في النهج القرآني القويم..لقد أوردنا الكاتب لتشرئب ضلوعنا في حلاوة موئلها، الروح حلوة ندية حرة لترتوي من نجيع المعرفة..ألفاظه الجزلة..لغة العرض المبسطة في أبعاد النور المتوهج للنص القرآني على المتلقي من كافة المراحل العمرية ولجمع المتلقين ..ليبقى القران الكريم هو منهج الحياة، ببنية مترابطة مع كل مناحي الحياة الواقع والأمل..ليوجه بتربوية مثلى ليكون نافعا في ترابطية مجتمعية متكاملة صور النفع، أناء الليل وأطراف النهار.

لعلي أختتم قولي بقول نشرته السيدة جليلة مهدي عن هذا الكتاب الذي تقول بأنه بعد قراءتها له، قد غير حياتها من حال إلى حال، وقد تداولت وسائل الإعلام مقالتها ومنها:

"لم أكن أعلم أن مصادفة غريبة من نوعها سوف تتسبب في هذا المنعطف الأكبر الذي زلزل لي أركان حياتي كلها ، حياة شارفت على الثلاثين، مضت وفق نمط معيّن ... لم أكن فيها آبهة كثيراً بقضايا الدين، وأحياناً كنتُ أراني منفصمة عنه، خاصة في الفترة الأخيرة التي شاهدتُ فيها أناساً يرفعون راية الإسلام ويتسببون بإلحاق كل هذا الأذى بالناس، وهم الذين تسببوا في تركي لبيتي في الموصل واللجوء مع زوجي وأبنائي إلى الشتات، لقد أحدث ذلك شرخاً كبيراً في نفسي وفي نفوس الكثيرين ممن أعرفهم عن قرب..
هكذا إذن..... كما تعصف السماء فجأة وتنهمر منها الأمطار لتغسل كل شيء وتؤسس لربيع هذه الطبيعة..... بعد ثلاثة أيام من ذلك، اقتنيتُ لأول مرة في بيتي القرآن ، وبدأتُ أقرأه للمرة الأولى إذ لم يسبق لي أن أمسكتُ بالقرآن وقرأته، رغم أنني مسلمة ، ثم بدأتُ أتعلم الصلاة وأصلي، وهي المرة الأولى التي أصلي فيها .. وعلى رأي المثل فرب ضارة نافعة .. فقد هربنا من رعب المسلمين هناك لندخل باب الهداية إلى الإسلام هنا....

لا أقول بأنني الآن أختار أجمل ما في هذا الكتاب .. ولو كان الأمر بيدي لكتبته كله حرفاً حرفاً ونشرته .. لكنني في الآن ذاته أقتبس بعض عباراته التي كان لها الأثر الشديد إلى هذا التحول المفصلي في حياتي ، وأنا أرى بأن هذا الكتاب تحول بالنسبة لي إلى صيدلية روحية لا يمكنني بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها..

القرآن الكريم هو دعوة للإنسان، كي تستيقظ حواسه على مدركات الحياة، فيشعر بجدية وحميمية ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين.

قراءة موضوعية في كتاب الارتقاء
في درجات تلقي معاني القرآن

غادة هيكل

مصر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد :

فقد كرم الله الأرض بنزول آدم وحواء لتعميرها ، وأكرم البشرية من نسل آدم بخلق محمدا عليه السلام ، وأكرم الأمة الاسلامية والعالم أجمع بنزول الوحى المحمل بآى القرآن الذى هو المعلم المتجدد الذى لا ينضب معينه من علم الأولين ، وعلم الحاضرين ، وعلم المتأخرين إلى قيام الساعة ،وقد ارسى أ / عبد الباقى يوسف /بعض دعائمه فى هذا الكتاب القيم حيث أوضح طريقا مهما لكل من وجد فى نفسه هوى ليكون نبراسا ومعلما أو هوى ليكون متعلما يترقى الدرجات فى رحاب هذا الكتاب المتين الذى فضله الله على سائر الكتب فى السابقين وألاولين وعلى كل الرسالات من لدن آدم وحتى قيام الساعة .

لقد بين لنا بين دفتى هذا الكتاب قسمين هامين متصلين بالقرآن الكريم وهما :

١-أن القرآن نور السماء إلى ظلمة الأرض

٢- فضل القرآن على الإنسان

أما القسم الأول ، نور السماء إلى ظلمة ألارض فقد اتى فى ستة فصول متتابعة هى :

الفصل الاول - كتاب التحولات الكبرى

الفصل الثاني - حدود الله .. حدود الناس.. في القرآن

الفصل الثالث - خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

الفصل الرابع - قارئ القرآن وفقه الموقف

الفصل الخامس - معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

الفصل السادس - التلقي القرآني وترويض النفس

أما القسم الثانى فقد تناول فيه خمسة فصول على جانب كبير من الاهمية لحياة كل مُطّلع وكل حافظ وكل محب لقراءة القرآن الكريم وهى :

الفصل الأول – حاجة الإنسان إلى القرآن

الفصل الثاني – ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء

الفصل الثالث – قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

الفصل الرابع – القرآن الكريم ومنهج الحياة

هذه أربعة والفصل الخامس منها هو مثال كبير جدا ومهم للتطبيق الحياتى على ما سبق وذكر من التواصل القائم بين قارئ القرآن وحياته وفكره وعقله وقلبه ومكنونات نفسه وسمو روحه وغيرها من الفضائل كانت أو المثالب التى ترتكز عليها الحياة وتقوم بها ، وهى سورة البقرة أكبر سور القرآن الكريم ،وكان الاختيار هنا من الاهمية بمكان لأن سورة البقرة تعكس اكثر التفاصيل المرتبطة بحياة الافراد اليومية ، ومعاملاتهم مع بعضهم البعض ومع الكون المحيط بهم ، ولانها سميت باسم هذا الحيوان النافع الذى اختصه الله بعظيم الفوائد وكان بها ضرب المثل الذى يبين قاعدة العسر واليسر فى الدين .

لو تعرضنا بشئ من التفصيل لهذا الكتاب المهم جدا من وجهة نظرى فى عرضه لعلاقة مهمة جدا فى حياة الفرد اليومية بل فى حياة الفرد اللحظية ومنهج حياته الذى يرتضيه لنفسه المؤمنة التى نزل من أجلها القرآن الكريم ، لتعرفنا على بعض العناصر المهمة التى شملها هذا الكتاب ومنها :

١–القرآن الكريم كتاب الله المنزل بوحى من السماء على سيدنا محمد حقيقة لا نقاش فيها

٢–القرآن الكريم متجدد وصالح لكل العصور لا يتوقف عن زمن معين بل ينطلق من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل القريب والبعيد

٣–قدرة القرآن الكريم على الإرتقاء بالدرجات الإيمانية لدى الإنسان

٤–قدرته على تحويل الفرد من حالة اعتقاديه إلى أخرى ، مثل أن ينتقل من الكفر إلى الأيمان ، ومن الالحاد إلى التوحيد

٥–قدم الكتاب العديد من البراهين والادلة على كيفية تأثير القرآن فى حياة البشر وتأثرهم به وتفاعله مع مقتضيات حياتهم اليومية .

٦–قدم الكاتب بشكل مشوق ومرتب حالات تهيئة الفرد ثم قراءته ، ثم تدبره ثم تماهيه ثم انطلاق أعضائه ، ثم الذوبان الكامل مع آى القرآن وهى مراحل الترقى مع القرآن بداية من البسملة وفاتحة الكتاب ثم انتهاء بمثال قوى وهو سورة البقرة

٧–استطاع الكاتب بمهارة الرواى العليم والكاتب الحصيف أن يقدم الأمثلة القوية على كيفية ترقى الفرد من حالة إلى أخرى كلما انطلق لسانه وتدبر عقله وتناغمت روحه مع القرآن .

٨–أكد الكتاب على علاقة القرآن بكل أنواع العلوم الأخرى من فن ، وادب ، وفكر ، وسياسة ، وطب وفلك ، وغيرها مما يهم الانسان فى حياته

٩–أكد على علاقة القرآن ليس فقط بالعالم المادى بل بالعالم الروحانى ، والنفسى للشخص ومدى تاثير القرآن فى تلك الشخصيات بالإيجاب ومساعدتهم على التحول من حالت السلب إلى حالات الايجاب

١٠–كما بين الكتاب قوة القرآن الكريم فى إخراج الطاقات الكامنة لدى الفرد والتى تتأثر بمراحل قراءة القرآن حتى تصل إلى ذروتها فى الطمأنينة والإيمان والعمل والعطاء بلا مقابل ومعرفة قوة الخير وجذبها إلى النفس ومعرفة سطوة الشر وتجنبها بلا أدنى مشقة او تعب .

١١–اظهر الكتاب ان الإرتباط الوثيق بين معاملات الفرد والقرآن الكريم والتى تمثلت فى العطاء هذه الكلمة التى تحوى معان عده بينها القرآن جملة وتفصيلا بضرب الامثلة والتى استطاع هذا الكتاب القيم ان يفردها ويدلل عليها بشكل مبسط وشيق .

١٢– أوضح الكتاب ثلاثة محاور رئيسية يستخدمها الانسان القارئ وينتقل فيما بينها فى خلال مراحل تدرجه وهى اللسان هذا الناطق بالألفاظ ، والعقل الذى يتدبر هذا اللفظ ، ثم العين التى تبصر .

١٣– لم يقتصر الكتاب على تبيان مراحل التدرج الايمانى المرتبط بقارئ القرآن بحواسه الثلاث السابقة ولكنه اوضح مهارة مهمة جدا مرتبطة بتلك الحواس وهى مهارة قوة الملاحظة لدى العين التى ترسل بإشارتها إلى العقل فيتدبر ثم ينطلق اللسان فيتحدث ويؤثر فى الغير .

١٤- لم يترك الكتاب آفة مرتبطة بهذه الحواس الثلاث إلا وبينها وأوضح كيفية ترقى القرآن بالانسان حتى يتخلى عنها كلية ، وكيف يتحول من انسان سلبى مشوش العقل ، بغيض القول ، عديم الرؤية ، إلى شخص إيجابى طيب مواظب على التدبر ، منطلق التفكير نحو العمل الصالح حتى يتخذه منهج حياة يومى فيكون لغته التى يتحدث بها ، وعقله الذى يفكر به ، وعينه التى لا ترى سواه فى حياته ، فيكون كما قيل عن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) "كان خلقه القرآن " وأوضح مثال المرأة ص ١٢٧

١٥ – وعندما يتحول القارئ إلى اتخاذ القرآن منهجا لحياته فهو بذلك يقى نفسه الوقوع فى الملذات ويعمل على ترويض نفسه منها وكبتها بلا تفريط أو افراط وهو بذلك يتبع منهج الوسطية التى نادى بها الاسلام الحنيف ، وهنا كان موقفه من النفس وبيان سطوتها وقوة سيطرتها على الانسان إن ترك لها الحبل على الغارب ، كما بين كيفية ترويضها بالقرآن فى يسر وسهولة .

١٦-إن هذا الكتاب القيم لم يكتفى بذكر فضائل القرآن على الانسان ومراحل تدرجه الايمانى واتخاذه منهجا لحياته والقضاء على وسوسة نفسه وكفى ، ولكنه يعلم بعين المجتهد أن للشيطان دور لا يغفله غافل بينّه القرآن الكريم ، ودوره فى الوسوسة لهذا المتلقى للقرآن ، ولم يغفله الكاتب أيضا بل استطاع أن يبين متى يغافل الشيطان نفس الانسان ، ومتى يطلب منها المعصية ، ثم بين كيفية مواجهته والخروج من مأزق الوقوع فى براثنه وبين كيف اهتم القرآن الكريم بذكر الشيطان والاستعاذة منه فى مواقع عده ، وبين مواطن الوسوسة لدى الانسان ، ومتى يتوغل فيها الشيطان بوسوسته ، واسبابها وكيفية علاجها متخذا من التلقى القرآنى هدفا لذلك .

١٧- لم يغفل الكاتب أيضا أن أى مجتمع لا يقوم إلا بشقيه الأساسيين هما الرجل والمراه فوجه حديثه السلس الواعى نحو اهمية المرأة كعضو شريك فى أى مجتمع والقاء الضوء عليها فى آى القرآن بل واهتمامه بها فى مواضع كثيرة ، لانها اللبنة الاولى التى تحمل هذه الذرية وتربيها وتعلمها وتهذب أخلاقها فكلما صلحت المراة صلح حال المجتمع ككل ، ولم ينس أن يوجه ارشاداته إلى الرجل كى تكتمل

منظومة الصلاح فى المعاملة والرفق والتوجيه القويم ، ودلل على ذلك بآيات القرآن والاحاديث النبوية ،ص(١٣٠-١٣١)

١٨- ضرب لنا الكاتب العديد من الامثلة القوية التى اكد عليها القرآن فى كثير من المواضع والتى تلهى النفس عن الترقى والتدرج فى مراحله الايمانية التى ترتبط ارتباطا وثيقا بتلقى القرآن وفهمه وتدبره والتى تهزم الروح وتُشقى النفس وتفتح بابا للشيطان ، ومنها الكبائر واخص منها الزنا فأفرد له مساحة للشرح وكيف انه يخرج الانسان من منظومة البشرية وويجعله عالما همجيا .

١٩- لم يترك الكاتب طرح آفة او فعل عاصى بينه القرآن او أشار إليه بدون إظهار الحل المناسب له من آى القرآن وكيفية علاجه والتخلص منه بشكل ميسر ، فيبين الآيات التى نهت عنه ويأتى بالاحاديث التى تتكفل بالعلاج الواضح حتى تكتمل أركان الترقى والتدبر ، حتى تصل النفس إلى مبتغاها .

٢٠-واخيرا استدل الكاتب بأكبر واقوى الصور التى جمعتها سورة البقرة كدليل على أهمية القرآن والارتقاء فى تلقى معانيه ، حتى لا يكتفى القارئ بظاهر القول وبثرثرة اللسان كعادات فقط دون الغوص إلى ماهية الالفاظ ومعانيها ومخرجاتها وتأثيرها فى كل ما يحيط به من افعال واقوال وعبادات وفروض ونواهى وعلاقات ، وكل ما يهم الانسان فى حياته بل وفى آخرته أيضا ، مع شرح مبسط لتلك الآيات تصل بمعانيها إلى كل مهتم فى يسر بالغ .

٢١- مما لفت نظرى وكنت أحب ان يكون عنصرا فى هذا الكتاب القيم هو القصص القرآنى ودوره فى تربية الإنسان كمرحلة أولى لدخول عالم المعانى ، فنحن نعلم جيدا أن للقصص مفعول جيد جدا فى تلقى المفاهيم المختلفة ولها تاثير كبير على النفس منذ الطفولة وحتى فى مراحل الشباب وغيرها ، والقرآن الكريم حافل بالقصص المفيدة التى تمتلئ بالعبر والعظات والتى تفتح أمام النفس الابواب المغلقة وتعبر إليها بسهولة كبيرة ، ولكن راقنى كثيرا الامثلة الحياتية التى صاغها الكاتب مثل

(المرأة التى أبت إلا أن يكون حديثها القرآن ص ١٢٧)

الأمثلة والاقوال التى نقلها عن بعض المشاهير كسقراط وافلاطون والرازى والكندى و.... غيرهم كثير)ص ٣٥-٣٩
الاستدلال بآيات القرآن الكريم فى المواقف المختلفة وشرحها المبسط .
الامثلةالحياتية وارتباطها بالقرآن (سنبلة الصدقة ، الماء والحياة ، شجرة الكلمة ، ....) ص ٥٦

٢٢- أن كل ماسبق ذكره من فضل القرآن وفضل متلقيه والمتمعن فيه والمترقى بدرجاته العلى والعامل به والتارك له وكيفية عودته إلى الطريق الصحيح وان يرتكز على القرآن كصراط مستقيم ، وأن أثر القرآن الواضح الجلى على كل قارئ وعامل ومجتهد وبالغ الذروة في اليمان لن يصل إلى ذلك إلا برحمة من الله وفتح آفاق المنهج ، وكما سأل الشافعى وكيع عن سوء حفظه فقال :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ****فأمرنى بترك المعاصى
وقال إن العلم نور ******* ونور الله لا يهدى لعاصٍ

كما بين أن القرآن الا يرتبط بمكان ولا زمان ولا تكنولوجيا ولا اوراق بل هو يتغلغل فى النفس التى صنعت والتى قرأت والتى تعلمت التكنولوجيا فهو شريك يكرم المكان ولا يتكرم به ومن أفضل الاماكن منبت الوحى التى ذكر فضلها، هى مكة المكرمة ومنها انتشر وفاح عطره فى كل ارجاء العالم ، قصة (مايكل وولف) ص ٢٨
وفى الختام فإن هذا الكتاب القيم والذى يقع فى ٣٠٠ صفحة فهو دليل قيم على أهمية القرآن الكريم للحياة القائمة والسابقة والمستقبلية لكل من يبرهن على أهميته ، ولكل ساع إلى محاولة الترقى فى دنياه والفوز بآخرته.

صورة المرأة في كتاب
الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

نجاة بلهاشمي

ذكر عبد الباقي يوسف في مقدمه كتابه القيّم "الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن"
الهدف من بحثه: (سعيت في هذا الكتاب إلى تناول تفاصيل وقائع الحياة التي يجلو فيها
أثر القرآن على سلوكيات الناس، فقد أشرت إلى مدى ما يفعله القرآن الكريم من تحولات
مفصلية كبرى في حياة الإنسان)ص. ٨. والحقيقة انك حين تتصفّح هذا الكتاب تجد
المؤلِّف يُسقِط كل ما جاء في القرآن الكريم على الحياة اليومية، لأنه علم يقينا ان القرآن
الكريم ليس مجرد كلمات تزين الصفحات وانما هو منهاج حياة ومنار صراط مستقيم.

لقد كثرت البحوث حول القرآن الكريم، فأسهب العلماء في ذكر سوره وآياته وكلماته وحروفه وتفاسيره وأسباب النزول والمحكم والمتشابه... و هذا باع كبير في الد راسات
القرآنية، لكن القرآن الكريم هو هدى للناس وبينات تنير درب الإنسان الذي يريد السعادة

في الدارين. هذا هو غرض بحث الأستاذ عبد الباقي يوسف الذي يجد في القرآن العظيم
ملاذ كل إنسان متدبر: "قارئ القرآن المتدبر يتمتع بحالة هائلة من الاتزان البدني والنفسي
والاجتماعي والعقائدي والفكري والاقتصادي، يقرأ وقائع الحياة قراءات قرآنية، يتلقى الأنباء
السارة والحزينة وفق المخزون القرآني الكامن في أعماقه، إنه كائن لا تزحزحه أعتى الرياح، يستمد حصانته من صلب علاقته القويمة بالقرآن)ص. ١١ (

شخصية المرأة

إن ما لفت انتباهي وأنا أجوب صفحات الكتاب وأحاول الارتقاء في درجات تلقي معاني
الكلمات حضور المرأة حضوراً بارزاً. إن المرأة شقيقة الرجل ومعينته في الحياة التي تشرق سبلها كلما تمسك الإنسان بحبل من الله وحاول الاعتصام بالذكر الحكيم. وقد وجدتُ الكاتب قد ذكر نساء كثيرات قد ارتقين إلى درجات عالية في فهم القرآن الكريم
فصرن منا رات هدى ورموزا يُحتذي بها. وسأذكر في مقالي هذا ثلاث نساء: أم أنس أو أمّ
سليم، رابعة العدوية، وامرأة أسماها الناطقة بالقرآن.

أم أنس: لا حياء في الدين

لقد جاء ذكر هذه الصحابية الجليلة في الفصل الرابع "قارئ القرآن وفقه الموقف" من القسم الاول. فالمواقف لا تنحصر على الرجال فقط، و لنا في القرآن أمثلة عديدة. فحين

نقرأ آخر سورة التحريم نجد أن الله ضرب لنا موقفين أحدهما سلبي يتمثل في زوجتي نوح
ولوط عليهما السلام وموقف إيجابي تمثل في امرأة فرعون الطاغية، ومريم ابنة عمران
الطاهرة. "فالموقف بصمة الإنسان وهو خلوده]..[. وعندما تقوم)المرأة (بعمل وتكون
جادة فيه فإنها تبدع في هذا العمل وتقدم موقفا فيه]...[وهي تريد أن تبرهن للرجل أنها
(تفعل شيئا هاما") صص. ٣٩ –39
وإن السائل يبحث عن سر اهتمام الكاتب بهذه المرأة، فيجد الجواب صريحا حين يقول عبد
الباقي يوسف "أتحدث عن أم سليم هذه المرأة إلتي تتمتع بسيرة حسنة و تبرهن لنا إن
الرجال العظماء يمكن أن يسهموا في وجود نساء عظيمات والنساء العظيمات يمكن إن يقفن
دعامة قوية إلى جانب الرجال إلعظماء")ص. ٥٩ (. فالرجل العظيم الذي كان مصدر
عظمة هذه إلصحابية الجليلة لم يكن إلا الرسول صلى الله عليه وسلم حامل إلقرآن إلكريم
فأم سليم عرفت قدر إلاسلام و شربت من كوثر إلقرآن حتى إلثمالة. لقد إرتقت في درجات
تلقي إلقرآن وعرفت معانيه وإتبعت رضوإنه، أما إلرجل إلعظيم إلذي أهدته للعالمين وهو
. إلصحابي إلجليل أنس بن مالك
أول ثمرات هذإ إلتلقي إلحكيم لمعاني إلقرآن إلكريم ظهر في قصة زوإجها مع أبي طلحة

إلذي كان عدوا لدوداً للإسلام والمسلمين. كان أبو طلحة رجلا غنيا تتمناه كل إلنساء ولكن أم
سليم كانت إمرأة متميزة، ورمزاً من رموز إلاسلام إلتي لا ينطفئ نورها. إنها لم تطلب ذهبا ولا
فضة بل كان مهرها إلمنشود إن يعتنق أبو طلحة إلإسلام "فانطلق أبو طلحة يريد إلنبي
صلى إلله عليه وسلم ورسول إلله صلى إلله عليه وسلم جالس في أصحابه، فلما رآه، قال:
جاءكم أبو طلحة غرّة الاسلام بين عينيه". فأخبر رسول إلله صلى إلله عليه وسلم " بما قالت
أم سليم فتزوجها على ذلك")ص. ٥٩ (. إنه موقف جلل من إمرأة رمت إلدنيا خلف ظهرها
فلم ترض بالفاني إلبخس، بل أحبت أن يكون مهرها وما أعظمه مهراً دخول إنسان إلى
إلاسلام

ولم يكتف إلكاتب بهذا الموقف فحسب، بل ذكر آخر يصور إلصحابية إمرأة صبورة وزوجة
صالحة تعين بعلها على نوائب الدهر، وإن أشد نائبة هي الموت. لقد ترجمت أم سليم إلقرآن
في حياتها وارتقت في معانيه، فهي لم تكن تقرأ القرآن قراءة عابرة، بل كانت تتدبر في آياته
المشرقات. آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره وعلمت أن البنين زينة الحياة إلدنيا ولكنها هدية
من إلله إن شاء نزعها.
لمّا مات ابنها وكان فلذة كبد والده، طلبت من الصحابة ألا يعلنوا

خبر الوفاة لزوجها. فلما عاد إلى البيت تعشّى مع أصحابه ثم "قام إلى فراشه فوضع رأسه ثم
قامت وتصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، ثم جاءت حتى دخلت معه الفراش فما
هو إلا أن وجد ريح الطيب فكان منه ما يكون من إلرجل مع أهله. فلما كان آخر الليل،
قالت: يا أبا طلحة أ رأيت لو أن قوما أعاروا قوما عارية لهم فسألوهم إياها، أ كان لهم إن
يمنعوهم؟ فقال: لا. قالت: فإن إلله عز وجل كان أعارك ابنك عارية ثم قبضه إليه. فاحتسب
واصبر")ص. ٥٩ (. ياله من موقف عظيم مصدرة إلقرآن
ومن خير مواقف هذه إلصحابية إلجليلة الموحية بمدى حرصها على الارتقاء في درجات
تلقي معاني إلقرآن هو مسارعتها لطلب المعرفة، لأنها تعلم يقينا إنها لا تستطيع تعلم دينها
إلا بواسطة العلم والعلم يبدآ بالسؤال. ولقد كانت السيدة إم إنس لا تستحي إن تسأل إلرسول
صلى إلله عليه وسلم عن أمور دينها. ذكر الكاتب نموذجا من هذإ الحرص على طلب العلم
قائلا: "جاءت أم سليم إلى رسول إلله صلى إلله عليه وسلم، فقالت يا رسول إلله، إن إلله لا
يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي: إذا رأت .الماء.
فغطت أم سليم، و قالت: يارسول إلله أ وتحتلم المرأة ؟ قالت عائشة رضي إلله عنها: يا أم

سليم فضحتِ النساء، تربت يمينك. فقال النبي صلى إلله عليه وسلم لعائشة: بل أنت تربت
يمينك. نعم فلتغتسل يا أم سليم إذا رأت ذلك")ص. ٠١١
ومواقف إم سليم بطولية أيضا، لأنها عرفت إن الجهاد في سبيل إلله دعامة لنشر إلإسلام.
فلقد أبلت هذه إلصحابية بلاء حسنا في يوم أحد. "قال أنس: لما كان يوم أحد، انهزم الناس
عن إلنبي صلى إلله عليه وسلم. قال: و لقد رايتُ عائشة وأم سليم رضي إلله عنهما وأنهما
لمشمرتان تنقزان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم. فتملآنها ثم تجيئان فتفرغان
في أفواه القوم")ص. ٠١١ (. وسابقت أم سليم في الجهاد يوم حنين حينما ضاقت الأرض
بالمسلمين وولوا مدبرين: "فانهزم الناس و"بقي النبي صلى إلله عليه وسلم و"معه عدد قليل
من إصحابه لا يتجاوز عددهم اثني عشر رجلا، فكانت أم سليم مع من بقي مع النبي صلى
الله عليه وسلم ص. ٠١١
لقد بدأت بالعلم متبعة نداء إلقرآن لمحمد صلى إلله عليه وسلم، حين كان أول أمر له القراءة
وطلب العلم. ثم جاءت لأمر ثان يكرهه أصحاب القلوب الضعيفة وهو الجهاد في سبيل إلله
خاصة في ساعة العسرة: ولعل أصعب غزوتين للرسول صلى إلله عليه وسلم وأصحابه هما
غزوتا أحد وحنين و كانت فيهما أم سليم مثالا في البطولة والشجاعة. أما الأمر الثالث

الذي فيه ثمرات الارتقاء في تلقي معاني إلقرآن وهو الكرم. فالناس مجبولون على حب المال
وقليل مَن يتصدق بحُرّ ماله وخيره لمساعدة الفقراء والمساكين. وثم أسهب الكاتب في ذكر
قصة اختلف رواتها حول جود هذه الصحابية الجليلة. فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم
يأتي مع جمع غفير إلى بيت أم أنس إلتي لم تكن تملك في دإرها إلا خبزاً. إنها لم تبخل بما
عندها لأن الكرم ذكر أجره الكبير في إلقرآن. أحبت أن يضاعف إلله لها أجرها ويبني لها
بيتا في الجنة: "فأتت بذلك الخبز. فأمر به رسول إلله صلى إلله عليه وسلم ففُتّ وعصرت أم
سليم عكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول إلله ما شاء أن يقول، ثم قال إئذن لعشرة، فأذن
لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال إئذن لعشرة، فأذن لهم فأكلوا حتى
شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال إئذن لعشرة، حتى أكل القوم كلهم حتى شبعوا والقوم سبعون أو
ثمانون رجلا)ص. ٠١١. ما أروعه جوداً

نساء .. ونساء .. ارتقين بالقرآن

ولقد أضاف الكاتب في هذإ الفصل مواقف أخرى خلدها التاريخ. لكن ما أثار انتباهي هو أنه
قد اتبع سيرة الرميصاء امرأة أبي طلحة أم إنس بن مالك بموقف امرأة تعرف عن سيرتها

الرسول صلى إلله عليه وسلم حينما أُسْري به، إنها ماشطة بنتِ فرعون التي شم النبي عبيرها
الطيب وهو على إلبراق . هذه المرأة إلتي آمنت برب واحد أحد فرد صمد، و لم تخش في إلله
لومة لائم أمام طغيان فرعون الذي "هدّد أن يقذف أولادها أمام عينيها في الزيت المغلي إن
لم تتراجع عن موقفها ولكنها أصرت على موقفها الإيماني بأن إلله هو ربها ورب فرعون ورب
الناس أجمعين. وبدأ يقذف أولادها أمام عينيها في الزيت واحداً تلو الآخر، وعندما جاء دور
آخر الأبناء وهو طفل صغير، ترددت الأم في إعطائه كونه ما يزال في المهد وهنا تحدث
معجزة، فيتحدث هذا الطفل كي تبقى أمه في موقفها ولا تغيّره عطفا منها على الابن. فقال
لها: يا أماه اثبتي على الحق فانا في الجنة")ص. ٠١٩

رابعة العدوية وحبّ إلله

جاء ذكر هذه المرأة الصالحة في الفصل الأول(حاجة الإنسان إلى القرآن). في القسم
الثاني حين تحدث الكاتب عن حجة الوداع فالرجل الاستثنائي وهو خاتم الانبياء والرسل
الذي أنشأ رجالا عظماء ونساء استثنائيات. قال عبد الباقي يوسف : "كانت رابعة العدويّة تصلي في
اليوم والليلة ألف ركعة وتقول: والله ما أريد بها ثوابا ولكن ليسر ذلك رسول الله صلى الله

عليه وسلم ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام انظروا الى امرأة من أمتي هذا عملها
(في اليوم والليلة".)ص. ١٤٣
ما اعظمها من امرأة تدبرت في معاني القرآن وجعلت حب الله والرسول صلى الله عليه
وسلم في أوج غرامها. عرفت أن القرآن كلام الله ورسوله لا ينطق على الهوى وأحبت أن
. تكون فخراً لأمة النبي صلى الله عليه وسلم
القرآن يعتمد على العقيدة وأساس العقيدة هو حب الله سبحانه وتعالى وهذا الحب يترجم
في العمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه. تقول رابعة العدويّة عن قوة الحب الإلهي ص 191
أحبك حبين حب الهوى **** وحبا لأنك اهل لذاك
فأما الذي هو حبّ الهوى **** فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له **** فكشفك للحجب حتى أ رك
فلا الحمد في تلك ولا ذاك لي **** ولكن لك الحمد في ذا وذاك

إنها رابعة العدويّة التي كلما صلّت وقرأت فاتحة الكتاب، علمت أن وقوفها بين يدَي ربها
ليس إلا حمدا على كل نعمة... وقوفها هو ارتقاء لتلقي معاني أم الكتاب التي هي أفضل
القرآن لأنها تلخص حياة الإنسان التي رُسمت بأحرف الذكر. لقد عرفت رابعة العدويّة أن
أولى آيات الفاتحة هي لله وأوسطها علاقة الانسان بربه فالإنسان يعبد والله يعين، ثم الآيات الثلاث الاخيرة هي دعوة إلى الهداية التي يعرف بابها بالقرآن الكريم

من قارئ القرآن وفق الموقف مع الصحابية أم سليم إلى حاجة الإنسان الى القرآن، مع
العابدة رابعة العدويّة، نصل إلى الفصل الرابع "القرآن الكريم ومنهج الحياة" مع امرأة ضربت مثلا في تعلقها بالقرآن وحرصها على الارتقاء في معانيه

المتعلقة القرآن

إنها امرأة ا رفقها عبد الله بن المبارك في رحلته إلى بيت الله الحرام مع سواد من الناس.

امرأة قد بلغت من الكبر عتيا، عجوز عليها درع من صرف وخمار من صوف.
ثلاث صفحات كاملة احتوت على حوار متميز: السائل عبد الله بن المبارك،
والمجيب هذه العجوز التي لا تلفت الانتباه. الأسئلة عادية بلغة العوام والإجابات اقتطفتها
هذه العابدة المتدبرة من رياض القرآن. الرحلة الطويلة غلبت عليها معاني القرآن، لأن
هذه العجوز لا تجيب إلا بالقرآن، وهذه لمدة أربعين سنة كاملة "مخافة ان تزل فيسخط
عليها الرحمن")ص. ١٣٩
إن المتتبع لهذه القصة يقف متعجبا أمام فراسة العجوز وقدرتها على إيجاد إجابات كلها
نابعة من القرآن الكريم ... المتتبع للقرآن لا يجد إلا كلمات ويقف إجلالا أمام قدرة هذه
المرأة على أن تعثر في القرآن على كل إيجاباتها، لكن الحقيقة أن هذه العجوز لم تحفظ
القرآن كلمات فقط بل جعلت القرآن منهجها: كلامها قرآن وسلوكها قرآن، حديثها ذكر

وأفعالها قرآنية. فهذه العجوز هي مثل القارئ المتذوق لحلاوة معاني القرآن يعكس ذلك
على نفسه ص. ١٣١
التي تبين أن القرآن الكريم يصير منهج حياة كل
قارئ متدبر فيه، يتحدث الكاتب عن المرأة عموما فيقول: "وقد حظيت المرأة بتكريم إلهي
في القرآن الكريم وهي تتسع بخصوصية تميزها عن الرجل. تقف المرأة في القرآن الكريم
دعامة أساسية في ترسيخ أواصر العلاقات الاجتماعية والإنسانيةص. ١٣١
المرأة الصالحة تقدم للمجتمع أبناء بررة وهي حصن لزوجها. وقد ذكر الكاتب أحاديث عن
قيمة الزواج وأثر الزوجة الصالحة. فذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن ابن
مسعود رضي الله عنه: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض
للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء"
وإن الحديث عن الزوجة الصالحة بعد قصة الناطقة بالقرآن لم يكن اعتباطيا، فهذه العجوز كانت أمّا لثلاثة أولاد صالحين، وصلاح الأم هو صلاحها زوجة

ولقد ذكر الكاتب علاقة الزواج حين تحدث من بركات البسملة، فقال صلى الله عليه وسلم: "وهي فاتحة خير يستحب أن يفتتح بها الإنسان كل أمر هو مقبل عليه ويشمل ذلك
حتى الجماع لأن المرء عندما يعاشر حليلته فإنه نتيجة ذلك تكون الولادة بمشيئة الله، ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالبسملة في الجماع. ففي رواية للشيخين، عن

ابن عباس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: لو أن أحدكم إذا أ ا رد أن يأتي
أهله، قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدّر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا. ص. ١٤
لقد حظيت المرأة عموما والزوجة والأم خصوصا بقيمة كبيرة في كتاب عبد الباقي يوسف،
وكانت هناك صفحات عديدة أسهب فيها الكاتب في ذكر قيمة الزواج ومكانة الزوجة الصالحة الطيبة التي تساعد بتدبرها في القرآن زوجها وأولادها على الارتقاء في تلقي معاني القرآن
ولعل أهم ما يمكن أن نختم به هذا البحث عن المرأة في كتاب الروائي السوري عبد الباقي يوسف هو ما جاء في فصل : "التلقي القرآني وترويض النفس" من القسم الاول، حيث قال عن
قارئ القرآن: "تنتعش نفسه بقراءة القرآن، يرتاح سمعه بالإصغاء إلى تلاوة آياته. إن كل
كلمة يقرأها أو يسمعها، تجعله أكثر توازنا و أكثر هدوءا]...[. النفس تتبع توجهات صاحبها، لا توجد نفس لا ترضخ لأمر حاملها. والنفس كالمرأة ، تكون امرأة كلما كان
زوجها رجلا]...[. تريد النفس ان تكون مفتاحا بيد صاحبها أكثر مما تريد أن يكون مفتاحا بيدها. إنها مرة اخرى كالمرأة في ذروة اشمئزازها ، توجه صفعة مؤلمة إلى زوجها
الواهن ردّا على وهنه وعدم تمتعه بمسؤولية الرجولة نحوها)ص. ١١١ (. فما احوج القرآن إلى نفوس تقية متدبرة في معاني القرآن ! وما أحوج المجتمعات إلى نساء ارتقين
في درجات تلقي معاني القرآن الكريم وأعنّ أزواجهن وأولادهن على المضي قدما في سبل
الذكر الحكيم

حداثـة الطرح القرآني برؤية عصرية تشويقية في كتاب
الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

بقلم: غادة حلايقة
الأردن

صدر هذا الكتاب عن الاتحاد الإسلامي الكردستاني في أربيل – كردستان العراق، لمؤلفه الروائي السوري عبد الباقي يوسف ، وقد جاء هذا الكتاب في ٣٠٠ صفحة من الشرح في تقديم كتاب الله، ومدارج الارتقاء في تلقي معانيه ، ثم انقسم الكتاب إلى قسمين، لكل فسم فروعه المتصلة به، أما قسمه الأول فقد جاء تحت عنوان (نور السماء إلى ظلمة الأرض) و منه تفرّعت الفروع الآتية:

مقدمة الكتاب

الفصل الأول – كتاب التحولات الكبرى

الفصل الثاني – حدود الله .. حدود الناس.. في القرآن

الفصل الثالث – خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي و التلقي البشري

الفصل الرابع – قارئ القرآن و فقه الموقف الفصل الخامس – معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

الفصل السادس – التلقي القرآني و ترويض النفس

ثم جاء القسم الثاني من الكتاب متخذاً عنوان: (فضل القرآن على الإنسان) وتفرّعت بعد كلمة الاستهلال الفروع الآتية:

الفصل الأول – حاجة الإنسان إلى القرآن

الفصل الثاني – ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء

الفصل الثالث – قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

الفصل الرابع – القرآن الكريم و منهج الحياة

الفصل الخامس – مشكاة قراءة تدبرية لسورة البقرة

ثم خاتمة الكتاب.
لعل المتأمل لهذا الفهرس التشويقي أول ما ينتابه هو أن يمسك بالكتاب ولايدعه قبل أن يكمل قراءته، والحقيقة فإن هذا لم يكن كافياً، حيث يجد القارئ نفسه مندغعاً إلى إعادة القراءة، بل وعدم وضع هذا الكتاب بين الكتب المفروغ من قراءتها، لأنك كلما أخذت منه شيئاً ودونته في دفترك للرجوع إليه، اكتشفت شيئاً جديداً، وهكذا ترى هذا الكتاب يمتلك جاذبية أنه يتحوّل بالنسبة إليك إلى كتاب يومي، تستمتع بقراءته، والحصول على جواهر ثمينة من ثنايا صفحاته.

القدرة على تناول الموضوعات وآفاق تحليلها بلغة أدبية متفرّدة

بادئ ذي بدء ، أول ما يشد انتباهنا لهذا الكتاب القيم هو قدرته على تناول موضوعات القرآن الكريم بطريقة عصرية تختلف اختلافاً كلياً عن كل كتب التفاسير التي اعتدنا عليها ، مما يجعلنا نقرأ الكتاب بكل شغف وبكل طمأنينة وراحة بال ، كما يضعنا في حالة تساؤل ، لماذا لم يتناول المفسرون القدامى قضية التفسير بمنظور المؤلف عبد الباقي يوسف؟
اشتهر الأديب في مجال الرواية ، فكان له فيها صولات وجولات حتى انعكس تأثيرها على تفسيره ههنا؟
وقد استطاع الكاتب إضفاء قيمة أدبية ولغة شائقة وأسلوب متكامل ، وبلغة سلسة حلقت بنا عالياً فوق السحاب.
بدأ الكاتب مؤلفه بالحديث عن منزلة القرآن الكريم ، وخصائصه في مجال القراءة ، ثم قام بتفسير البسملة ، فسورة الفاتحة ، ثم أتبعها بتفسير سورة البقرة تفسيراً عصرياً موافقاً لمقتضيات العصر ومستجداته الحديثة ، فشرح مدلولات السورة ، التي تعد أطول سورة بالقرآن الكريم فكان الكاتب دقيق الوصف حين وصفها بأنها (سورة منهج حياة جديدة ، لمجتمع يستمد تجدده من ثنايا هذه المقومات الجديدة ، التي تشرعها وتنصها وتؤسس لها هذه السورة . إنها تقلب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب ، وتسن لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلا لنشر رسالة بلوغ

الدين درجة الكمال وإتمام نعمة الله على الإنسان. إنها ثورة استنارية جديدة ، لقد وقع اختياري على هذه السورة الكريمة ، لاتخاذها نموذجاً للتلقي القرآني ...) (١) .

ومما يصف الأديب الروائي سورة البقرة قائلاً بأنها : تُعنى بالتفاصيل، والشرح المستفيض، وهي تضع أسس وقواعد بناء أمة جديدة ، سوف تشرق على العالم ، وتأخذ على عاتقها مسؤولية تصحيح المسار البشري. وآية ثم آية تتدرج بالإنسان ، حتى تسن له الشرائع والقوانين والنواميس ، التي هي فضل من الله عليه ، ورفعة لمنزلته كإنسان حظي بتكريم إلهي وعناية إلهية.القراءة التدبرية لهذه السورة، تجعل الإنسان يقف أمام ما يتمتع به من خصال و مزايا، حيث ترسخ هذه السورة لديه معالم السلوك الإنساني الذي يتمتع به الإنسان.) (٢)

وقد تعرضنا لقول الكاتب هذا ، كون هذا القسم من أهم الأقسام في الكتاب ، بل في الكتاب جله.

ثروة حديثة في حقل الفكر القرآني

لقد ظهرت في عصرنا الحاضر حركات مجرمة مثل داعش والقاعدة ... حيث استطاعت تلك الحركات المجرمة أن تشوه الإسلام ، مما انعكس أثرها سلباً على المسلمين في جميع انحاء العالم ، وجعلهم يبتعدون عن الإسلام ؛ لهذا فالكتاب يجعلك تشعر بالتفاؤل والأمل ويفتح لك آفاقاً جديدة للتوبة وإعادة النظر في الحياة ، ويكاد الترهيب يكون معدوماً ، فلم يقع الكاتب بهذا المستنقع كما وقع فيه الذي سبقوه من المفسرين الأجلاء...

لعلي لاأغالي إن قالت بأن هذا الكتاب الثمين يُشكل منعطفاً تحولياً هاماً في مسار الفكر الإسلامي، وهو الكتاب الذي يبث الأمل ويقول صحيح الإسلام وسمحه، فلا تملك أن تقول : أجل هذا هو إسلامنا الحق.

لقد تميز كتاب الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن بقدرته على التغير والتغيير ، ولا بد لي من الاعتراف بتغيير حياتي أنا شخصياً فكان له كمفعول السحر في نفسي.

يقول شيخنا وأديبنا في كتابه :

(إن الارتقاء في درجات معاني القرآن الكريم، يحتاج إلى تهيئة بدنية وروحية، ليستطيع الإنسان القارئ أن يتلقى جواهر معاني القرآن. وإن القرآن ثري بغايات ومصالح البشر، ويعطي لكل ذي حاجة حاجته ، ويجعلك تُدرك أبعاد حقوقك في الحياة التي تعيش فيها، وتعلم معالم الواجبات التي عليك تأديتها، وهذا من شأنه أن يحقق في نفسك شيئاً من التوازن.) (٣)

لقد كشف لنا الكتاب عن فن قراءة القرآن ، وتدبر معانيه في ظل هذا العصر المجنون الذي أبتلي بحركات إرهابية تدعى الإسلام ، وتشوهه بذات الوقت ، أسأل العلي القدير أن يكون هذا الكتاب شفاء ودواء لكل داء والله من وراء القصد.

عبارات أعجبتني من هذا الكتاب النفيس التي كان لها الأثر الكبير في نفسي :

(إن القرآن الكريم يهب فرصاً ذهبية لقارئه المواظب المتدبر، كي يتلقاه على أوجه عديدة، حتى يمنحه كنوزه ولآلئه الثمينة، التي لا يمنحها إلاّ لأولئك الذين تعلقت أفئدتهم بأنوار القرآن الكريم، فيقرؤه قراءات استثنائية استنارية متقدمة ، يستخرجون من نفحاتها المباركة أنوار سمو المعاني الإلهية، التي تتجلى لهم بين ثنايا السطور، إنهم يتجاوزون القراءة الظاهرية اللفظية، يغورون، ويستجلون نفائس لألئ المعاني الثمينة، يستخرجون روح الحكمة من ثنايا السطور، فيكون ذلك مبعث سكينة لهم في الدنيا والآخرة.) (٤)

(كلما يزداد الإنسان إيماناً بالله، فإنه يزداد توازناً في الحياة.) (٥)

(يمتلك القرآن الكريم مقدرة هائلة على إمكانية التجدد، وهو لا يكتفي بذلك، بل يتجاوزه ليجدد قارئه كذلك، عندئذ لا يكتفي القارئ بأنه يقرأ كتاباً متجدداً فحسب، بل يشعر بأنه يتجدد مع كل قراءة جديدة لهذا الكتاب. ولذلك فإن القرآن يمتلك المقدرة

على تغيير الناس بشكل نافذ، بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد، إلى تاريخ عريق من الإيمان، من إنسان سلبي يقف على تاريخ من الجور، إلى إنسان يشرق بنور إيجابيات الفطرة الإنسانية.) (٦)

(إن ما يميز قراءة القرآن، أن كل قراءة تقدّم للقارئ علماً جديداً لم يكن يعلمه، كل قراءة تقدم إليه شعوراً جديداً لم يكن يشعره، كل قراءة تقدم له متعة قراءة جديدة لم يكن يدركها، تضيف إلى نفسه لمسات جمالية جديدة، لم تكن لديه من قبل. إن كل قراءة تجعله يشعر باتزان، وهو يتأمل مجريات الحياة، ولذلك نرى المريض يلجا إلى قراءة القرآن، ويشعر بأنه يتداوى به، والذي تصيبه مصيبة كبرى يلجأ إلى قراءة القرآن، فيجد متنفساً عن نفسه، والذي يبتغي ذكر ربه في السراء والضراء، يلجأ إلى القرآن فيشعر قلبه بطمأنينة ذكر الله. هذه الأنوار، التي يكتسبها الإنسان من صلب قراءته القرآن، لا تنتهي عند فراغه من القراءة، بل ينتفع بها في وقائع حياته اليومية، سواء مع نفسه، أو مع الآخرين، أو مع مقومات حياته.) (٧)

(يجد قارئ القرآن منهج حياة متكاملة في القرآن، الذي يتعرض لكل كبيرة وصغيرة، تمس مقومات الحياة البشرية. إنه كتاب تحليلي مفصل عن صلب علاقة الإنسان بالحياة، علاقته بنفسه، علاقته بالآخرين، علاقته بالله يفضي التلقي القرآني بقارئه المتدبّر إلى منزلة أن يعيش حياة قرآنية مميزة ، تتحوّل فيها مقومات الحياة إلى آيات قرآنية أمام ناظرَيه تزيده حكمة، ونضجاً، وتوازناً، وصبراً، وامتلاءً بالحياة .يغدو في مراتب متقدّمة من تذوّق المعنى القرآني، وبناء علاقة قويمة مع قرآنية الحياة.) (٨)

(إنه كتاب مبارك أنزله الله لك كي تكتشف مكنونات نفسك، تستطلع أسرار ما تخفيه النفس، يعلّمك بأن المعرفة الكبرى والمجدية الأولى تبدأ من معرفتك لنفسك، وكلما عرفت نفسك جيداً، عرفت ربك جيداً، وكلما عرفت ربك جيداً، عرفت الإنسان جيداً، وكلما عرفت الإنسان جيداً، عرفت الطبيعة جيداً، وكلما عرفت الطبيعة جيداً، استنارت نفسك بنور الإنسان، لتستمتع بممارسة مزايا إنسانيتك.) (٩)

هذه هي بعض النفحات للأديب البارع عبد الباقي يوسف ، والذي أتحفنا بعشرات النفحات مثلها ، ومما لا شك فيه أن الكتاب سيثري المكتبة العربية والكردية الإسلامية بهذا المؤلف العصري النفيس، وسيبقى علامة مشرقة من علامات الفكر الإسلامي الصحيح .

١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم ، عبد الباقي يوسف ،العراق ، أربيل ٢٠١٤م ، ص ٢١٣-٢١٤.
٢- المصدر نفسه ، ص٢٤٣ .
٣- المصدر نفسه ، ص٢٩٣.
٤- المصدر نفسه ، ص١٠.
٥- المصدر نفسه ، ص١٣.
٦- المصدر نفسه ، ص١٦.
٧- المصدر نفسه ، ص٨٠.
٨- المصدر نفسه ، ص١٩٠.
٩- المصدر نفسه ، ص٢٩٣.

تأملات قرآنية في كتاب

"الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن"

بقلم: أمين خالد دراوشة

الأردن

في فقه "الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن"

مقدمة

تتوافق العقائد كلها، بأن الله هو رب الناس جميعاً، وهو يوجه لهم التشريعات، ويوضح لهم عنايته ورعايته لهم، حتى يحسوا بالطمأنينة، وهم يعتنقون هذه العقائد.

والقرآن الكريم دعوة للإنسان، كي يستنهض حواسه، ويفهم ويعقل مدركات الحياة، فيشعر بالوئام والجدية والمسؤولية بينه وبين مقومات حياته، وفي نفس الوقت يحافظ على حياة الآخرين. لذلك قراءة القرآن الكريم الدائمة، تجعل صاحبها يتخذ لنفسه منهاجاً تربوياً من قراءته. فهو يتلقى التربية القرآنية، ويرتقي بها، فيصبح إنسانا مفيداً ونافعاً. والعلاقة التبادلية بين القرآن وقارئه، تبلغ مراحل متقدمة من الفهم النوراني، فيتجنب الوقوع بالأخطاء المميتة، وطريقه تصبح واضحة المعالم ينيرها الهدي الرباني.

قسَّم الكاتب كتابه إلى قسمين، وتناول في قسمه الأول ركائز العلاقة بين مقومات حياة الإنسان، وبين القرآن الكريم، الذي كلما ازداد الإنسان قراءة له، توطدت تعاليمه في النفس، ومكّن قارئه من تخطي القراءة الظاهرة للكتاب الكريم إلى تلقي معانيه، وبالتالي يرتقي بسلوكه الإنساني بمقدار ارتقائه بتلقي معاني القرآن. ويبلغ مرحلة لا يستطيع فيها الاستغناء عن قراءة القرآن، ويصبح رفيقه الدائم الذي لا غنى عنه.

لقد اجتهد المؤلف في تناول تفاصيل وقائع الحياة اليومية، وبين أثر القرآن على سلوكيات الإنسان، وتحدث عن المدى العميق الذي يفعله القرآن من تحولات كبرى

ومفصلية في حياة الناس. وتطرق إلى كيفية استنباط حدود الله، وحدود الناس في القرآن، وأسهب في شرح أثر القرآن على مفهوم اللسان للكلمة، وكيف يوظف نعمة اللسان في استخدام اللفظ الحسن. وكيف يتحول الإنسان إلى صاحب موقف من الحياة، بعد أن يملك الإنسان القدرة على ترويض النفس وتهذيبها.

أما القسم الثاني من الكتاب، فناقش فيه عبد الباقي يوسف، حاجة الإنسان إلى القرآن، وأهمية القراءة الدائمة له، لما لهذه القراءات من انعكاس إيجابي على سلوكياته في حياته اليومية، لأن القرآن الكريم هو منهاج حياة يضيء الدروب المظلمة، ويوصل إلى حياة الطمأنينة والسكينة. وفي الفصل الأخير من الكتاب، يتناول الكاتب فيه "مشكاة قراءة تدبرية لسورة البقرة"، وهي أطول سور القرآن، حيث اجتهد عبد الباقي في شرح وتفسير وكشف مكنونات آيات السورة.

الكتاب يناقش علاقة الإنسان بربه، والتي هي علاقة الأرض بالسماء، السماء التي لا تحتاج الأرض، بينما الأرض لا يمكن لها إلّا أن تبقى بحاجة السماء التي تمنحها مقومات الحياة والاستمرارية. وسعى الإنسان إلى فهم الغيب من خلال إيمانه، واستقباله الرسل، الذين حملوا الرسالة الإلهية عبر التاريخ البشري، دين الله الذي يقدم للإنسان الكنوز التي لا تفنى، حتى يحس بالاستقرار والطمأنينة.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: "يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين". (سورة يونس، ٥٧)

نور السماء إلى ظلمة الأرض

كتاب التحولات الكبرى

يتناول الكاتب في هذا الفصل ما يمتاز به القرآن من مقدرة مذهلة على إمكانية التجدد وقدرته العجيبة على تجدد قارئه أيضاً. فالقارئ للقرآن لا يقرأ كتاباً متجدداً

فقط، بل يشعر بطاقة التجدد تسري فيه، ومن هنا تكمن مقدرة القرآن على تغيير الناس بشكل عميق. بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد إلى تاريخ عريق من الإيمان.

فهو كتاب التحولات الكبرى في حياة الإنسان الفرد، وسلسلة المنجزات البشرية في كل جوانب الحياة.

إن قراءة القرآن المستمرة تقدم للقارئ شيئاً جديداً في كل مرة، وتتدلى مصابيح الأنوار أمامه مع كل قراءة، فيتعرف على الله بما لم يتعرف عليه من قبل، ويصبح مقرباً إليه أكثر، وهذا الأمر ينشط في نفسه الطاقات الإنسانية.

ولا شك أن الله جل شأنه ما كان ليأمرنا بإعادة القراءة لو لم يكن هناك فائدة مع كل قراءة جديدة.

ويشرح الكاتب أهمية البسملة، فالبسملة فاتحة خير، يحبذ الإنسان أن يفتتح بها كل أمر هو مقبل عليه، فهي تهب البركة على نتائج ما يقوم به، كما أن ذكر الله يجنّب الشيطان، وتجعله يقوم بعمله على أحسن وجه.

ويوضح ما أغلق من معاني فاتحة الكتاب، ويقول: "تفتتح قراءتك لسور القرآن بفاتحة سوره، التي تكون لك معيناً لتلّقي ما ستقرأ من سور، حتى تبلغ ختمة القرآن". (الكتاب، ص ٢٥). والتي قال عنها الله أنها (السبع المثاني). فهي كنز من كنوز عرش الرحمن، وتتميز سورة الفاتحة بأنها أكثر سور القرآن الكريم قراءة في الناس، فهي تقرأ مع كل ركعة في الصلاة، ويستعين بها الناس في مختلف مناسباتهم. وهي سورة متماسكة ومترابطة ومتكاملة، لا تقبل التجزئة، أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة.

وينتقل المؤلف في الفصل الثاني للحديث عن "حدود الله..حدود الناس..في القرآن". ويتناول نزول القرآن في مكة المكرمة، وهي البقعة الجغرافية التي تحظى بمزايا جمة أهلتها لاستقبال كلم القرآن، وأن تكون قبلة الدنيا. فمكة ليست قرية محلية في عالمنا

العربي، بل هي قرية كونية، تملك كل مقومات التأثر والتأثير في العالم بمختلف شعوبه وألوانه.

ومفهوم مكة القرية يختلف جذرياً عن المعنى المألوف للقرية، فهي أعلى درجة من مفهوم المدنية، وهي تشير إلى مكان تجمّعي لكل أبناء العالم. فهي لها خصوصيتها التي تجعلها تختلف عن باقي قرى العالم، فهي "ترمز إلى تبادلية العلاقة بين القرية والمدنية، بما في ذلك من تحولات مجتمعية وبيئية، وكذلك توازنية". (ص٤٠)

وحدود الله هي حدود تحدد للإنسان طريق حياته، وهي ليست حدود تفصلك عن أذى الله، بل حدود تفصلك عن أذى نفسك وأذى الآخرين. فوجود الله هو الذي يحد من ارتكاب الجرائم، ووجوده هو الذي يجعل الغني يزكي...فلا بد أن يكتشف الإنسان يوماً، أنه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون إله ينير دربه.

خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري

يناقش عبد الباقي يوسف في هذا الفصل خصائص الإرسال الإلهي من خلال ثلاثية هذه العلاقة: بين الله كمرسل، وبين الرسول كمبلّغ، وبين الناس كمتلقين.

ويقول: إن مزايا الخطاب اللغوي الذي هو تكريم من الله للإنسان بإعطائه العقل، ومن ثمّ وجه خطابه لهذا العقل، الذي يملك نعمة اللسان الذي يتحدث عنه. فقد كرم الله بني آدم بنعمة العقل، لذلك يستطيع الإنسان أن يتقدم خطوات في درجات السلوك والإنتاج الإنساني. والعقل يستضيء بالدين، فالإنسان يسمو بقدر ما يملك من دين وعقل.

وورد في القرآن آيات كثيرة، تبين أهمية العقل، وتعمل على تعريفه، يقول تعالى: "قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون". (سورة آل عمران، ١١٨). ومن خلال آيات القرآن التي تعرف العقل وتوضح أهميته ندرك أن الإنسان يرتقي في درجات تلقي معاني القرآن على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل سليم. وبهذا يصبح

القرآن بالنسبة إليه كتاب التحولات الكبرى في طريق حياته. ويقول الحسن بن علي مبرزاً أهمية العقل: "ما تمّ دين رجل، حتى يتم عقله". (ص٥٦) إذن العقل هو ممارسة وسلوك، وتصرفات حكيمة ترجع بالفائدة على صاحبها، وعلى الناس الآخرين. فالعقل السليم يقود صاحبه إلى التمتع بحياة صحية وسليمة.

وتطرق الكاتب إلى أهمية اللسان البالغة، فالإنسان هو لسانه، ويمثل ما يكونه. وقد ربط القرآن بين العقل وبين اللسان، وجعل مسؤولية اللسان كمسؤولية العقل، لذا تناول الكاتب مدى تأثير القرآن في بث مسؤولية اللسان عند القارئ المتدبر، فالإنسان يميز عن الكائنات الأخرى بلسان بليغ، قد يرفعه إلى درجات سمو، أو يطيح به إلى أسفل الدرجات.

ومن ضمن الموضوعات التي ركز عليها عبد الباقي المثل في القرآن، وشبهه بالجسر الذي يتلقى من خلاله قارئ القرآن كنوز المعنى القرآني، في هذا المنهج من مناهج التربية القرآنية للناس.

فالمثل عنصر هام، وهو إحدى مقومات القرآن، لذلك فحضوره طاغ، ويتكرر من سورة إلى سورة، فهو يمثل أداة الوصل بين القرآن وبين القارئ، ويورد الكثير من الأمثال التي تم توظيفها في وقائع مختلفة. ويوضح الله جل شأنه الغاية من ضرب الأمثال في القرآن، وهي إحداث التحولات الكبرى في حياة وسلوك الإنسان، وهو يسمو في تلقيه للقرآن الكريم. يقول تعالى: "وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلّا العالمون". (العنكبوت، ٤٣)

وهذا الإنسان هو المقصد التي من أجلها نزل القرآن، ونزول سائر الكتب السماوية. إن قراءة القرآن تشعرنا بمسؤولية ورهبة، إننا نحس بعظمة الكلمة إرسالاً وتلقياً.

القراءة التي تجعلنا نشعر بأهميتها في سبيل أن نعرف أنفسنا والآخرين، والعالم من حولنا، وبالتالي التقدم خطوات في معرفة الله جل شأنه.

قارئ القرآن وفقه الموقف

يتحدث عبد الباقي يوسف في هذا الفصل عن قارئ القرآن والذي يستطيع أن يتخذ موقف من الحياة. ويقول أن قارئ القرآن يسعى ليجعل لنفسه حضوراً في الحياة. فأهمية أي إنسان وقيمته، تحدد في الموقف الذي يقفه الإنسان من مجريات أحداث الحياة، ومن تفاصيل حياته اليومية الاجتماعية التي يمارسها. فالموقف هو: "بصمة الإنسان، وهو خلوده، سواء كان هذا الموقف سلبياً أو إيجابياً". (ص٩٣)

فالإنسان يحتاج إلى موقف يقفه من مجمل مظاهر الحياة، وأن يُعرف بمواقفه، فهناك الكثير من الأشخاص الذين ضحوا بحياتهم من أجل موقف اتخذوه في الحياة.

وقد خلد التاريخ أسماء كثيرة، وقف أصحابها موقفاً واحداً إيجابياً، فذكره التاريخ بالخير، وآخر اتخذ موقفاً سلبياً فخلده التاريخ بذكر قبيح.

فموقف الإنسان هو عقيدته، وكل ثقله في الحياة، ويسهب الكاتب في طرح الأمثلة عن مواقف صحابة رسول الله "صلى الله عليه وسلم"، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب، وأم سليم (وهي أم أنس بن مالك) وغيرهم.

معالم الطريق ومنعرجات الفوضى

يناقش الكاتب نظرة الإنسان العبثية إلى نفسه، لأنه يحس بأنه كائن غامض في كوكب مجهول، جاء من مجهول، وينتظره مصير مجهول.

ومن هنا يبدأ الإنسان بالتفكير، وينطلق ليقرر ما الذي سيكونه في الحياة. فهل سيبقى في حالة ضياع أم سيجد لنفسه غايات وقيماً يلتزم بها؟ ولا ريب أن العديدين

سيقعون في هاوية الفوضى والدمار، وآخرين سيكتشفون أن الحياة الحقة تقترن بوجود الله في نفس الإنسان المفكر والطيب. ولذلك هو يقبل بشغف على الأعمال الصالحة، لأنها ستسبقه إلى السماء، حيث عندما يحين أجله سيكون معها.

فالإنسان الذي استوعب وجود الله، وأنه ينظم ويدير الكون، سينقذ نفسه من الفوضى والظلمات، ويتحول المجهول إلى مدارج مضيئة أمامه. فالإنسان كلما استوعب آيات الله، "اتسعت مداركه، وانفتح نضجه، ونظم حالة الفوضى في كوامنه، هذا التنظيم الذي يهب لحياته معنى، وبوجوده كإنسان قيمة غنية". (ص ١١٧-١١٨)

فالإنسان بحاجة لأن يكون مع تعاليم الله، وأن يتعلم منه، من صلب علاقته بالإنسان، ومن صلب علاقته به جل شأنه، نحتاج أن نقترب أكثر من رحاب خالق الأكوان. ويدرك الإنسان هنا ما يريد أن يكونه في الحياة، أن يكون ناضجاً مستقيماً ذو أخلاق حسنة، أو فاشلاً يسير دون هدى، وهذا الأمر يحتاج إلى الجهد، وتحمل المشاق والصبر والمثابرة والإصرار والإرادة حتى تبلغ هدفك الذي وضعته نصب عينيك.

التلقي القرآني وترويض النفس

توطد قراءة القرآن نفس القارئ على الصبر والحكمة، وتنتعش نفسه، ويرتاح سمعه، فكل كلمة يقراها، أو يسمعها، تجعله أكثر توازناً، وأكثر هدوءاً. وبالتالي يصبح في حياته خبير، فيتريث في اتخاذ القرارات، ويكون لديه القدرة على اتخاذ القرارات المناسبة. فالنفس تسير خلف توجهات صاحبها وتنحني لأمره، فالنفس "تقف أمام صاحبها القوي بخشوع، بوقار، بتقدير، باعتزاز، بأمان. وتقف إزاءها صاحبها الواهن بسخرية، باستهزاء، باشمئزاز، بخيبة، بقلق". (ص ١٧٠)

والتوغل بقراءة القرآن، تعلم الإنسان أن يسير بهديه، وكيف ينظر إلى أساسيات الحياة، ومجريات الأمور في حياته نظرات قرآنية. ونلاحظ المسؤولية الكبيرة اتجاه ترويض النفس، فهي يمكن أن تكون فاجرة فاسقة، وتضغط على صاحبها، وأما أن تكون تقية ونقية، تعطيك زهور تقواها. والمسؤولية هنا تجعل الإنسان الحق، يبذل كل جهد ليوظف شهوات نفسه التوظيف الصحيح.

فميزة القرآن انه يعطينا مكوّنات النفس ومزاياها وتركيبها، وميولها، ويدل القرآن قارئه الفطن على الكيفية التي يقود فيها نفسه، ويعلمه كيف يكون ملكاً عليها. وهذه هي لذة السيادة الحقيقة، فالقرآن يشعرك بمعنى براعة السيادة.

والله خلق الإنسان في الحياة، وخلق الحياة فيه، ودائماً يسعى إلى الجديد والتغيير، فالقرآن يحثك على السعي الدائم إلى حدائق المعرفة، وكلما فهمت آيات الله في الكون والخلق، اقتربت من الله واقترب الله منك.

وليس هناك شعور بالرضا والطمأنينة يضاهي شعور المؤمن، وهو مستكين في عمق إيمانه بأنه بين يدي الله.

وفي الصفحات المقبلة، سنتطرق إلى ما تناوله الكاتب في القسم الثاني من كتابه، من حاجة الإنسان إلى القرآن بوصفه منهاج حياة.

حاجة الإنسان للقرآن، ومتعة العطاء

لما بلغت حاجة الإنسان ذروتها، أرسل الله إليه القرآن رحمة، ونور يطيح بظلمة الإنسان والأرض.

فالقرآن ينظم للناس مقومات حياتهم، ويبين لهم مسالك الخير، ودروب الشر، ويغرس في نفسيتهم قيم المحبة والتكافل الاجتماعي، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهذّب القلوب، ويوطد الروابط الإنسانية في نوازعهم.

فالقرآن هو: "كتاب تشريعي، تنويري، فكري، تعبدي، تأملي، معرفي، حقوقي، رباني، إنساني، وهو كتاب الدنيا بامتياز، إلى جانب كتاب الآخرة بامتياز، فهو يخاطب الناس الأحياء، وموجه إلى الأحياء، ويتوارثه الأحياء، وينتفع به الأحياء". (ص١٤١)

لقد أنار الله الأرض بنوره من خلال القرآن، والذي ترك أثره على جميع سكان العالم، ويظن الكاتب أنه ليس هناك بقعة جغرافية من الأرض لم تنتفع ولو بقبس من نور القرآن. وهذا بلا شك فضل من الله تعالى على الإنسان

فالقرآن يكمن فيه علاج الروح، ويهب العلاجات الشافية للذين تعرضوا لاهتزازات نفسية حادّة، ووقعوا ضحية اليأس، فهو يبث فيها الأمل في انبثاق حياة جديدة، فهناك طاقات في نفس الإنسان لا تفتح إلا عندما يكون صاحبها في قراءة تدبريه للقرآن.

ويكون من تأثير قراءة القرآن شعور الإنسان بمتعة العطاء، ومساعدة الآخرين. ويتميز الناس عبر التاريخ على قدر ما يقدمون من عطاءات لبلدهم، والعطاء بكل تأكيد لا يشمل لون واحد، بل يشمل العطاء المعرفي، والفكري، والفني، والطبي، والأخلاقي، والمادي.

قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة

إن الشخص المواظب على قراءة القرآن بعمق وتدبر، يكتسب مهارات عدة، يستطيع أن يستخدمها في حياته المعيشية، فهو يتعلم من قراءاته التأملية التفكيرية قراءة لغات

أخرى، فهو يقدر على قراءة نبرات الصوت، وتميز إذا كانت تعبر عن صدق أو رياء، ويقرأ لغة الجسد التي تدلل على أعال ومعان. كما يتمكن القارئ الفطن من قراءة العيون التي توحي بما في نفس الإنسان. وبحديث الكاتب عن العين وأهميتها تكتمل ثلاثية التلقي والتفاعل لمعاني القرآن، بعد أن تحدث عن العقل المفكر، واللسان الذي ينطق بما يبثه إليه العقل. وهنا تأتي العين التي تقرأ كتاب الله، فيتلقى العقل ما قرأت، ثم يبث بما يبلغه إلى اللسان، "وهذا اللسان يكون موجهاً إلى الآخرين في عملية التداول المعرفي من جهة، والتطور الفكري والحضاري من جهة أخرى". (ص١٧٥)

والعين المواظبة على قراءة القرآن تعشق النظر إلى كل موطن جمال، وتنفر من النظر إلى كل موطن قبح. وتجعل الإنسان يسلك في حياته طريق الخير والصلاح لا طريق الشر والخراب.

القرآن الكريم ومنهج الحياة

نجد عند قراءة القرآن، أنه يعبر عن منهج حياة متكاملة، فهو يتعرض لكل كبيرة وصغيرة تمس جوهر الحياة الإنسانية. فهو مفصل ويحلل صلب علاقة الإنسان بالحياة، وعلاقته مع نفسه، ومع الآخرين، وعلاقته بالله.

يقوم القرآن بتنظيم الحياة الإنسانية للناس، ويبين لهم طرق توظيف طاقاتهم، ويوضح العلاقة بين الرجل والمرأة، والتي تشكل البنية الأساسية للمجتمع البشري. وقد كرم القرآن المرأة في الكثير من الآيات، وبين دورها الذي لا تستقيم الحياة بدونه.

إن التلقي القرآني هو "عملية فض الغلاف عن لب الكلمة لبلوغ المعنى، هذا المعنى الذي تستخرج منه التدبّر الذي يصلح لك شأنك". (ص٢١١)

ولذلك تراك مواظباً على القراءة القرآنية، لأنك مع كل قراءة جديدة تتلقى معنى جديداً، يساعدك على تدبّر شؤون حياتك. بعكس القارئ الذي لا يصل إلى لب المعنى، الذي سيصبح قليل القراءة، لأنه لا يقدر على النفاذ إلى باطن مبنى القرآن.

في الصفحات المقبلة، سنتناول الفصل الأخير، والذي فرده الكاتب لقراءة تدبّريه لأطول سور القرآن، وهي سورة البقرة.

مشكاة قراءة تدبّرية لسورة البقرة

يتناول الكاتب تحت هذا العنوان، الكيفية لقراءة سورة البقرة قراءة تدبّرية، فهي سورة منهج حياة جديدة، لمجتمع يستمد روح تجدده من ثنايا هذه المقومات الجديدة، التي تشرعها وتؤسس لها هذه السورة العظيمة، فهي "تقلّب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسن لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال، وإتمام نعمة الله على الإنسان". (ص٢١٣) فهي ثورة تنير ما أُغلق على البشر، حملها رجل وصفه الله أنه على خلق عظيم.

يبرر الكاتب تناوله سورة البقرة بقراءة تدبّرية تجلو ما تحتويه من لآلئ، ولاتخاذها نموذجاً للتلقي القرآني، بقوله: إنها أكثر الآيات إسهاباً في التعرض لتفاصيل الحياة اليومية للناس، فهي تضع الإنسان الجديد أمام مرآة ذاته، وتجبره على النظر إلى مكنونات نفسه، وتتيح له النظر إلى آفاق الحياة الرحبة، ليعرف مدى نقاء هذا الإنسان، ومدى ما يملك من عذوبة وشفافية، فهي سورة تشريعية، وفقهية، ونفسية، تضع المحاذير: الحلال والحرام والنهي، وتوضح حدود الله، لذلك لغتها مباشرة بحيث يفهمها أغلبية الناس، وبها آيات لها أكثر من دلالة، وهي "تكشف غناها بتغير

الزمان والمكان". (ص٢١٤)، وكذلك لمكانتها العظيمة في نفوس المسلمين، إذ قال الرسول الكريم: "من قرأ سورة البقرة، توج بها تاجاً في الجنة". (ص٢١٤)

وكان الرسول "صلى الله عليه وسلم"، عندما يريد أن يشحذ همة الصحابة، يناديهم (يا أصحاب سورة البقرة).

خاتمة

يخبرنا الكتاب في النهاية، إن الارتقاء في درجات معاني القرآن الكريم، يحتاج إلى تهيئة بدنية وروحية، ليستطيع الإنسان القارئ أن يتلقى جواهر معاني القرآن. وإن القرآن ثري بغايات ومصالح البشر، ويعطي لكل ذي حاجة حاجته.

ويجعلك "تدرك أبعاد حقوقك في الحياة التي تعيش فيها، وتعلم معالم الواجبات التي عليك تأديتها، وهذا من شأنه أن يحقق في نفسك شيئاً من التوازن". (ص٢٩٣)، ويمنحك مزية التصالح مع النفس، وبالتالي أن تكون متصالح وفي وئام مع العالم، وتشعر أنك جزء من العالم، وهذا العالم يحمل شيئاً منك.

وإن كل قراءة جديدة هي اكتشاف جديد، وعلامة فارقة في محطات حياة الإنسان، وكما لا تشرق الشمس على الإنسان "مكررة مع صبيحة كل يوم، بل يستقبل يوماً جديداً، فكذلك الإنسان لا يعيد قراءة القرآن، مهما بلغ في ختمه ، بل إنه مع كل بدء للقراءة، يشرع في قراءة جديدة، تمتاز بكل معطيات الجديد". (ص٣٠٠). ومن بين ثنايا السطور يستخرج القارئون روح الحكمة، ويكون القرآن مبعث طمأنينة وسكينة لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

الكتاب غاية في الأهمية، ويتضمن معلومات ثمينة، وقد كان لاشتغال المؤلف في حقل الأدب (الرواية) دورا كبيراً في تناول الموضوع بلغة أدبية عذبة وسلسة، وتشوق القارئ لمتابعة القراءة حتى نهاية الكتاب، بل والجلوس بعد ذلك للتأمل في قدرة الله

وحكمته جل شأنه. وفي ظل الظروف السيئة المحيطة التي يعيشها الإنسان المسلم في هذا الوقت العصيب، يصبح للكتاب قيمة استثنائية، لإشاعة الفكر البناء، وثقافة الحوار، ولكشف كنوز وجواهر القرآن الكريم، الذي هو منهاج حياة المسلم.

القرآن إثابة وتربية وسموّ
قراءة في كتاب الارتقاء في درجات معاني القرآن

د. مصطفى عطية جمعة
الكويت

كثيرة هي الكتب التي تدفعها المطابع كل يوم عن القرآن وتفسيره والاستفادة من تعاليمه، ونادرة هي الكتب المتعلقة بالتربية القرآنية ، والتعامل مع القرآن من منطلق يتجاوز كونه كتاب عقيدة وتشريع شامل ، إلى كونه كتاب الحياة كلها، حياة المرء والأمة . ولعل مقولة الشاعر العظيم محمد إقبال تثري ما نقول ، عندما ذكر نصيحة والده له : " اقرأ القرآن كأنه يتنزل عليك " ([1]). ولك أن تتخيل أن تتعامل مع الآيات المعجزة ، كأنها تخاطبك أنت ، وتتناول وقائع حياتك أنت ، وتجيب عن أسئلتك أنت ، وتدفعك إلى المعرفة والاستزادة منها وبها ولها ، وساعتها سيصحو المرء منا على القرآن ويقضي لحظاته متدبرا ، مترنما . وكما يوضح المؤلف ([2]): " لو لم تكن حاجة الإنسان إلى القرآن بلغت ذروتها، لما أرسله الله إليه، إنه رحمة من

---

[1]) انظر : عبد اللطيف الجوهري ، الشاعر محمد إقبال وخطابه لأمة العرب ، على موقع الألوكة للدراسات والبحوث http://www.alukah.net/culture/0/47968/

[2]) الأستاذ عبد الباقي يوسف ، سوري من أصل كردي ، من مواليد الحسكة في سورية ، عام ١٩٦٤م ، وقد أصدر سبعة أعمال روائية ومجموعات قصصية ، وله موسوعة المعرفة في ثلاثة أجزاء . انظر موقع القصة السورية ، http://www.syrianstory.com/youssef.htm

الله بالإنسان، ونور حلّ على ظلمتي الإنسان والأرض معاً " ([1])، فالبشرية في أشد الاحتياج للقرآن ، فكم أضلتها كتب كثيرة ، وعبثت بها تشريعات ، وعبث البشر بتشريعات ربانية منزلة بالكتب السابقة ، فجاء القرآن كتابا محفوظا سليما من التحوير ، على مدى الأزمان ، ليسد حاجة الناس في كل صعيد وفترة ومكان .

ومن هنا ، وكما يشير المؤلف في ثنايا كتابه : فـ " إن التلقي القرآني هو عملية فض الغلاف عن لب الكلمة لبلوغ المعنى، هذا المعنى الذي تستخرج منه التدبّر الذي يُصلح لك شأنك، وهكذا تراك مرتقياً في قراءة القرآن لأنك تتلقى من كل قراءة معنى جديداً، تستخرج منه تدبّراً يُصلح لك شأناً جديداً من شؤون حياتك، وعلى قدر ما يجعلك ذلك مواظبا على قراءة القرآن، يقف قارئ القرآن غير الفاض عن اللّب غلافه دون ذلك وهو يغدو قليل القراءة لأنه وقف أمام مبنى القرآن، دون أن يلج باطنه " ([2])، نجد هنا إشارتين مهمتين : الغلاف والمعنى ، فصارت الكلمة غلافا ويجلو المعنى التدبر ، فالتدبر الذي هو التلقي الدائم المعمق للقرآن قائم على فض إيحاءات الآيات ، والكلمات ، ودلالات السور .

أيضا ، شتان بين القرآني والدنيوي ، فالناس مشغولة بشؤون معاشها وهؤلاء هم الدنيويون ، أما القرآني فهو مشغول بما حفظه وما يسترجعه ، غير منصرف عن دنياه ، بقدر ما يأخذ دنياه إلى قرآنه ، أو يجعل قرآنه في كل زمن ومكان في دنياه ، حتى إذا أسند شقه الأيمن ، وتوجه إلى الله ، متمتما ببعض الآيات قبل أن يخلد إلى نومه، سيكون في غاية الراحة لأنه خلد إلى النوم حاملا القرآن في حنايا صدره ، فإذا شاء الله أن يقبض كان القرآن شاهدا وشفيعا له، وإذا شاء أحياه ليوم جديد ، استيقظ وهو طامح أن يجعل يومه الذي مُدَّ في أجله سبيلا للاستزادة القرآنية : فهما وتفسيرا وتطبيقا ، وأيضا سلوكا وتعاليم ووصايا وإرشادات .

وستكون قراءتنا لهذا الكتاب في محاور عديدة ، تستهدف تغطية ما فاضت به أسطره ، وأوحت به عباراته ، وفاحت عبيرها من كلماته .

بنية الكتاب :

---

[1]) ص٨٩ ، الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن .

[2]) ص١٣٩ ، الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

عندما نتعرض للبنية ، فنحن نلج بالمنظور الكلي أو الرأسي ، وهذا يساعدنا في فهم خطة الكتاب ، ناهيك عن محاوره ونقاطه الرئيسية ، فقد انقسم الكتاب إلى قسمين رئيسين، حمل الأول عنوان : **نور السماء إلى ظلمة الأرض** ، وشمل ستة فصول ، سعت إلى تغطية هذا العنوان ، الذي فيه الكثير من الحس الأدبي، والتناص مع القرآن الكريم ، فقد نُعِت القرآن والإيمان كثيرا بنعت مشترك وهو النور، مثلما نعت الكفر بالظلام ، أما الفصول فقد سعت إلى تبيان هذا العنوان ، فشملت محاور وهي : **كتاب التحولات الكبرى ، حدود الله .. حدود الناس.. في القرآن ، خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري ، قارئ القرآن وفقــه الموقــف، معالم الطريق ومنعرجات الفوضى ، التلقي القرآني وترويض النفس .**

وكما نلحظ فإنها تبدأ بتبيان الحدود التي أنزلها الله تعالى في كتابه المقدس ، ثم حدود الناس في الحياة كما أبانها القرآن ، ونرى أن المؤلف ابتدأ بالرؤية الكلية ومن ثم انحدر تدريجيا إلى الجزئيات ، فقد تطرق إلى طبيعة العلاقة بين الوحي والبشر ، واستخدم في ذلك لفظة " **التلقي** " ، الذي يعني – فيما يعنيه – كيف يعي المسلم القرآن ، شفاهة وسماعا ورسما مكتوبا ، وأيضا كيف يعيه فهما وإدراكا ، فالقراءة من المكتوب والشفاهة من المسموع ، من أهم سبل تلقي القرآن الكريم ([1])، وكذلك سائر العلوم الإسلامية الناشئة حوله . ومن خلال التلقي ، بدأ في عرض علاقة قارئ القرآن بالحياة في مواقفها وفقهها ، وسلوك الطريق السوي في الحياة ، والتعرف على معالم الخير ونبذ منعرجات الشرور، وأيضا سبل ترويض النفس وتهذيبها قرآنيا .

وجاءت نعوت المؤلف للقرآن بأنه : " كتاب تشريعي، تنويري، فكري، تعبدي، تأملي، معرفي، حقوقي، رباني، إنساني، وهو كتاب الدنيا بامتياز، إلى جانب أنه كتاب الآخرة بامتياز، فهو يخاطب الناس الأحياء، وموجه إلى الأحياء، ويتوارثه الأحياء، وينتفع به الأحياء، بالدرجة الأولى " ([2])، ليكون القرآن كتابا تشريعيا لشؤون الدنيا ، وعقيديا وتربويا لشؤون الآخرة .

---

[1]) استقبال النص عند العرب ، د.محمد المبارك ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص٢٢٠.

[2]) ص٩٢ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

أما القسم الثاني ، فهو يتمحور حول " فضل القرآن على الإنسان " ، وهنا تكون الصورة التطبيقية ، بمعنى أن القسم الأول نظري ، والقسم الثاني تطبيقي ، سعى المؤلف فيه إلى التبيين من خلال المواقف والأمثلة والدلائل ، لآثار القرآن على المرء المسلم ، والحياة ، والمجتمع ، والأمة ، كما نقرأ في عناوين الفصول : " حاجة الإنسان إلى القرآن ، ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء ، قارئ القرآن ومهارة قوة الملاحظة القرآن الكريم ومنهج الحياة ، مشكاة قراءة تدبرية لـ سورة البقرة" ، وقد جاءت صياغة الفصول من خلال الأسلوب الجزل ، والأمثلة الواقعية، والاستشهاد بالقديم والحديث من الحديث الشريف ، والسيرة العطرة ، والتاريخ الإسلامي ، وأيضا من العلوم الحديثة ، لنخلص إلى أن القرآن سبيلنا للخير، كل الخير في حياتنا ، وأننا به نرتقي ، ونسمو ، ناهيك عن الإثابة والأجر ، والأهم أنه وضع القرآن في موضعه الصحيح ، وأظن أن هذا هو غاية الكتاب ، بأنه يجعل صلة المسلم مباشرة ، دون وساطة ، بالقرآن الكريم ، فيقرأه المسلم ، ويعيه، ثم يستعين بما يشاء من تفاسير وعلوم ليعرف المزيد ، أي أن يعيش المسلم في القرآن فيتخذه صاحبا ، وأنيسا ، ومدرسة ، وجامعة ، وبيتا وسكنا ، ومن ثم صار القرآن سببا في تشكل الحضارة الإسلامية ، وكما يشير المؤلف بأن للقرآن الكريم أثره الجلي على سائر ألوان وأجناس الآداب والفنون الإنسانية، ويمكن أن نصنف مرحلتين انعطافيتين: مرحلة ما قبل نزول آي القرآن، ومرحلة ما بعد النزول، فإذا نظرنا إلى الآداب والمناهج الفكرية الإنسانية، التي اتسمت بالنبوغ، نراها لا تتمتع بالمزايا التي تمتعت بها في مرحلة ما بعد انتشار القرآن الكريم في الناس. وهذا أمر طبيعي في مواكبة الفكر، والمنجز، ومحطات تطور العبقرية البشرية، لأسباب وعوامل ومستجدات التطور ([1])، وتلك رؤية جديدة ، فعلينا أن ننظر إلى المعارف والعلوم التي أبدعها البشر في حضاراتهم المتعاقبة ، وما جادت به حضارة الإسلام المؤسسة على القرآن ، ناهيك عن العلوم التي استقت نبعها من هدي القرآن مثل التاريخ

[1]) ص٤٧ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

والفلسفة الإسلامية ، والجغرافيا ([1]) ، فكلها نهلت من النبع القرآني ، والخطأ الذي يسقط فيه كثير من المسلمين أنهم ينزعون الرؤية القرآنية عن علومهم، ولا يخاطبون البشرية علميا من خلال التصور القرآني .

وكما يقرّ المؤلف : " كنتُ دوماً عندما أقف أمام تشريع الله، أو نهيه، في القرآن الكريم، أرى أن هذا الإرشاد إنما هو توجيه للإنسان، حتى يفقه الحياة التي يعيشها، يتجنب العبثية في مسيرة حياته، وهو إرشاد من خبير يعلم (السر وأخفى) " ([2])، فجوهر رسالة القرآن / الإسلام ، أن الإنسان لم يخلق عبثا ، وإنما هو عابد ، متعبد، عليه رسالة عظمى ، تتمثل في نشر التوحيد ، وعمران الأرض .

ومتى وعى كل مسلم ، الفرد أولا ، ثم الأسرة ، والجماعة ، والمجتمع ، ثم الدولة، ثم الأمة كلها ، كل هؤلاء وعوا بدورهم القرآني ، فإنهم سيتحولون إلى طاقات إيجابية ودعوية وحضارية ، لها كل الأثر في التاريخ الإنساني .

فرادة الموضوع والهدف :

مفهوم الفرادة يعني : الاختلاف ، والجدة ، والإضافة ، في الجانب النظري، عما هو حالي وسابق، ويعني أيضا الجانب العملي والسلوكي في الحياة ، لتكون المحصلة ، تنظير شاف للعقل ، وتطبيق شاف للروح والسلوك .

إن الكتاب فريد في مؤلفه ، فالأستاذ عبد الباقي يوسف ، أديب وباحث متعدد الاهتمامات ، وتأتي فرادته في كونه اضطلع بتأليف كتاب عن القرآن ، مستندا إلى تجربته السردية الممتدة، وأيضا إبحاره في ميدان المعارف والعلوم المختلفة ، فجاء كتابه جامعا بين الحس الأدبي ، والمشاعر المرهفة ، والتعامل السامي ، والثقافة المتعمقة المتبحرة .

---

[1]) هناك علوم منبثقة من القرآن مثل علم القراءات والتفسير وأسباب النزول .. إلخ ، وهناك علوم متعلقة بالقرآن مثل علوم اللغة والفقه وأصوله . نظرة في نشأة القرآن وعلومه ، د. مساعد بن سليمان الطيار على موقع :
http://www.attyyar.net/container.php?fun=artview&id=465

[2]) ص٨٥ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

وهذا الكتاب فريد في موضوعه ، و في بنيته ، وفي عناصره ، ففرادته نابعة التي هي محور الكتاب ، فالفكرة الأساسية لهذا الكتاب تتمثل في النظر إلى الحياة مع القرآن، كيف يعيش المسلم مع القرآن ، وكيف يعيش القرآن معه . ربما يتخيل البعض أن هذه فكرة ليست بجديدة ، وحتى لو افترضنا هذا ، إلا أنه لم يتم تعميقها بالشكل الكافي من قبل ، بحيث يصبح القرآن – الذي هو لب الإسلام وأساس ثقافة وحضارة المسلمين – سبيلا للتربية ، ونهجا في المعايشة اليومية، والمعايشة الحياتية، وأيضا سلّما للترقي الإيماني ، والسمو الخلقي والروحي للمسلم .

وقد أبان المؤلف من مقدمته ، حيث يتناول : " صلب العلاقة بين مقومات حياة الإنسان، وبين القرآن الكريم، الذي كلما يُقرأ، ترسخت تعاليمه في النفس، وبذلك يتمكن الإنسان أن يتجاوز القراءة الظاهرة لهذا الكتاب المبارك، إلى تلقي معانيه، ومن خلال هذا التلقي القرآني، يرتقي بسلوكه الإنساني، على قدر ارتقائه في درجات تلقي معاني القرآن "([1])، فهناك جملة أمور نقف عندها : أن القرآن مصدر للإيمان والتعاليم والسمو الروحاني ، وأن الوعي بهدي القرآن لن يكون بالترتيل الآلي، وإنما بالغوص في معانيه ، فتصبح المعاني تعاليم ، وتترسخ التعاليم في النفس، ومن ثم يرتقي المسلم . فالمؤلف يعيدنا بطرحه إلى معين الإسلام الصافي ، لتكون العلاقة بين المرء والقرآن علاقة وطيدة ، سرًا وخبيئة بين العبد ومُنزِل القرآن .

وهو لن يتحقق إلا بالتدبر ، والتأمل ، ومصاحبة الآيات ، والعيش في حياضها، ومن ثم ننظر إلى الأثر النفسي الناتج عن ذلك . حيث يقرر مؤلفنا : " إن قارئ القرآن المتدبّر ، يتمتع بحالة هائلة من الاتزان البدني، والنفسي، والاجتماعي، والعقائدي، والفكري، والاقتصادي، يقرأ وقائع الحياة قراءات قرآنية. يتلقى الأنباء السارة والحزينة، وفق المخزون القرآني الكامن في أعماقه، إنه كائن لا تزحزحه أعتى الرياح، يستمد حصانته من صلب علاقته القويمة بالقرآن " ([2])، مما يثير قضية غاية في الأهمية ، وتتصل بالتربية القرآنية للمسلم ، التي تجعل القرآن حاضرا في بصر وبصيرة وذهن المسلم ، كلما وقعت حادثة أو مشكلة أو قرأ واقعة تاريخية أو

---

[1]) ص٥ . الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

[2]) ص٧ . الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

علمية أو اجتماعية .. ، فإنه يخرج مما اختزنته أعماقه قرآنيا ، ما يجعله يعي ما يصادفه ويعاينه من المنظور القرآني . وبالتالي نعيد فهم قوله تعالى : : { وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا }([1])، وقد جاء في تفسير الآية أن القرآن " يذهب ما في القلوب من أمراض ، من شك ونفاق ، وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه ، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة " ([2]).

فالقرآن شفاء للقلوب من أدرانها وأحقادها ، والعقول من أسقامها وحيرتها وتشتتها، والروح من تقلباتها ، وفوق ذلك ، سيتراحم المؤمنون لأن القرآن بركة ورحمة بآياته إذا تليت ، ورحمة لكل من سمعه وتعامل به واستحضره .

ويكون السؤال : وهل هذا فريد ؟ وكيف؟ والجواب بالإيجاب ، لأننا تعاملنا مع القرآن في أسوأ الحالات بأن نجعله مهجورا، وفي أحسن الأحوال نقرأه آناء الليل وأطراف النهار ، ونحفظ آياته ونصلي بها، ونرتلها في وردنا اليومي ، ولكن القضية تتخطى هذا ، وتبني عليه دون ريب، حيث يصبح القرآن نهجا في الرؤية والعمل ، وساعتها سينعم المؤمن بالراحة الكبرى، في مختلف أحواله ، لأن صلته مع الله سبحانه وتعالى مباشرة ، فالله تعالى يكلّم العبد بالقرآن ، والعبد يناجي ربه بالدعاء ، والله تعالى يرشد عبده كلما استحضر الآيات القرآنية في سائر شؤونه ، والعبد يلوذ بكلام ربه في كل ما يعنّ له .

يقول الأستاذ عبد الباقي يوسف:" إن القرآن الكريم هو دليل الإنسان إلى معرفة الله، وإلى معرفة مقاصده في تشريعه، ومن ذلك انفجرت ثورة التفسير، التي يسعى المفسر من خلالها إلى محاولة لبيان مقاصد الله ([3])، فلن يعي المسلم الشريعة مادام يهجر كتاب الله ، ولن يعي أي تفسير دون الرجوع إلى المصدر القرآني ، والتفاسير تعددت ، وكما يسميها المؤلف " ثورة التفاسير " ، لأن التفسير عنوان لتفاعل العقل

---

[1]) سورة الإسراء ، الآية ٨٢

[2]) تفسير ابن كثير للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ، ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م ، ج٥ ، ص١١٣ .

[3]) ص٢٣الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

المسلم الواعي المدرك المتدبر – مع العلم والإحاطة باللغة والعلوم الشرعية – مع الآيات القرآنية .

ولاشك أن هناك إدانة صريحة ضد هؤلاء المسلمين الذين يعيشون بلامبالاة وخمول في حياتهم ، وهذا الأمر ينطبق أيضا على جماعات ودول مسلمة ، وكانت سببا في الركود الحضاري الذي أصاب المسلمين جميعا .

فاللامبالاة يقول مؤلف الكتاب :" في أمور صغيرة، تؤدي إلى لامبالاة في أمور كبيرة، والاستمرار فيهما يؤدي إلى لامبالاة مطلقة تجاه كل خصائص وميزات إنسان اجتماعي يتسم بقيمة الأخلاق، ثم في مرحلة لاحقة إلى فقدان المسؤولية كاملة تجاه نواميس الحياة برمتها ([1]) ، وقد يكون مصطلح اللامبالاة صادم ، ولكنه واقع ، فمسلمون كثر تركوا رسالتهم القرآنية على الأرض ، وانهمكوا في الملذات أو التبلد الحسي والعلمي.

القرآن والتغيير :

ونعني به : أن القرآن الكريم قادر على إحداث التغيير في الفرد والمجتمع والأمم والحضارات . والسيرة النبوية والتاريخ يخبرانا بذلك ، فقد حوّل القبائل البدوية القاطنة في الجزيرة العربية من عرب رحّل إلى مؤمنين مهديين ، ومن ثم توحّدوا تحت راية النبوة ، وتحلت قلوبهم بالإيمان ، فاندفعوا لينشروا الإسلام في الأرض ، وتمكنوا من فتح غالبية الأقاليم المعروفة في زمانهم ، ومن ثم استطاع القرآن أن يقيم حضارة تالدة ، ظهرت عظمتها في الحواضر الإسلامية مثل بغداد والقاهرة ودمشق وفاس، والأهم أنها انطلقت برؤى القرآن ، وصيغت علومها بلغته .

وبالتأكيد ، فإن ما صلحت به أحوال المسلمين في أول حياتهم ، ستتصلح به أحوالهم الآن ، وفي القادم من الزمان .

وهذا ما أدركه مؤلفنا ، حيث أشار إلى أن " القرآن يمتلك المقدرة على تغيير الناس بشكل نافذ، بحيث ينقل شخصاً ما من تاريخ عريق في الإلحاد، إلى تاريخ عريق من الإيمان، من إنسان سلبي يقف على تاريخ من الجور، إلى إنسان يشرق بنور إيجابيات الفطرة الإنسانية. إنه كتاب التحولات الكبرى في حياة الإنسان، إلى

---

[1]) ص٧٨ المصدر نفسه

جانب أنه كتاب التحولات الكبرى في سلسلة المنجزات البشرية على مختلف الصعد"([1])، وهي نظرة نحسبها شمولية ، لأنها ارتأت أن القرآن ليس كتابا فحسب، ولا مصدرا للتشريع ، وإنما هو قادر بآياته على أن يغير النفوس والأمم ، وهذا ما درك عليه الرسول والجيل الذهبي الأول ، قرن الرسول من صحابته الكرام ، حين كانوا يحفظون الآيات ، ويطبقونها لحظة بلحظة ، ويوما بيوم .

"فعندما نقرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنا، حيث يقدم لنا القرآن الكريم مكوّنات النفس، يقدم مزاياها، تركيبتها، ميولها. كما يرشد القرآن قارئه الماهر كيفية قيادة النفس" ([2]) وهذا مصداق لقوله تعالى : { وفي أنفسكم أفلا تبصرون } ([3])، وينقل ابن كثير عن قتادة في تفسير الآية : قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة ([4])، فإن التفكر لا يشمل الكون برحابته، ولا العالم البشري حولنا بتعدده ، وإنما يبدأ بالنفس ، والجسد ، والذات ، فإذا أدرك المسلم نفسه ، وعرف جوانحه ومطامع جوارحه فله أن يتعمق فيما حوله ، فقد انفسح عقله على داخلها وخارجها .

أيضا ، فإن متلقي القرآن ، يستشعر سمو المعاني والقيم ، فالرحمة مثلا وردت في القرآن في عشرات المواضع ، إلا أن المؤلف يزيد في فهمها فيقول : " فالإنسان يجوز له أن يكون رحيماً، كما يصفه الله، وهي رحمة إنسانية محضة، بيد أنه لا يمكن له أن يكون رحماناً، بأي مقياس من المقاييس، وذلك لشمولية معاني ودلالات هذا الاسم، المقتصر على الله وحده عزوجل " ([5]) . وهنا يبزغ مفهوم قرآني غاية في السمو ، يتصل بأسماء الله الحسنى ، ووقعها في قلب المسلم الذي يتوقف أمام الرحمة المطلقة كما تتجلى في الذات الإلهية ، ويشتق منها أن يكون العبد رحيما، وهو موقن أن النموذج السامي اللامتناهي في الرحمة الذي يقرأه في القرآن يكون مع المولى جل وعلا ، فهو الرحيم الرحمن بسائر مخلوقاته .

---

[1]) ص١١ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

[2]) ص٨٢ المصدر نفسه

[3]) سورة الذاريات ، الآية ٢١ .

[4]) تفسير ابن كثير ، تفسير الذاريات ، الآية ٢١ .

[5]) ص١٥ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

مع الأخذ في الحسبان أنه : "ليس بالضرورة أن يرتقي كل قارئ مع كل قراءة، بل قد تكون قراءة سلبية، فينحدر من درجة سابقة كان قد بلغها، لأن القرآن ليس كتاباً سهلاً، وليس بوسع الإنسان أن يبني علاقة قرائية نورانية معه، إن لم يستعد لذلك بدنياً وروحياً ومكانياً، ولا يفتح القرآن الكريم مرآته للقارئ، إلاً إذا كان متأهباً ومتأهلاً لهذا الفتح" ([1]) ، وتلك هي الوجهة الأخرى إذا تقاعس المسلم في قراءته ، أو جعلها تلاوة آلية ، ففي هذه الحالة سيرتد إلى الدرجات السفلى ، وهكذا تكون العلاقة طردية بين العبد والقرآن ، على قدر اجتهاده يسمو ، وعلى قدر ركونه يتأخر .

يقول: "إن قراءة القرآن التدبرية تجنّب الإنسان كي يبقى هامشياً لامعنى لوجوده، إنها تعلمه كيف يتواصل مع سائر الفعاليات والمقومات الاجتماعية والإنسانية، فيشير ذلك إلى حضوره، كما أن غيابه يشير إلى فراغ" ([2])، وهذا بعد مهم ، لأن القرآن حافز للمسلم على أن يكون مبرزا متميزا ، لا يعرف هامشية ولا ركونا ، ونفس الأمر مع الدولة المسلمة والحضارة المسلمة ، لا يمكن أن تكون على هامش التاريخ أو خارج السياق العالمي والدولي .وكما يقرر المؤلف بأن "هناك أبطال كجنود مجهولين يعيشون في كل أحياء ومناطق وعواصم وبقاع العالم، بيد أنهم يُعرفون بمواقفهم، على الأقل في نطاقات ضيقة، حتى لو كانت مقتصرة على أسرهم "([3]) ، وهؤلاء هم الدعاة الذين يبذلون الغالي والرخيص من أجل نشر الدين ، سواء مع فرد أو مجموعات قليلة ، المهم أن ينال المثوبة وشرف الدعوة .

فالإسلام لا يعرف الشخص السلبي ، وإنما يعرف الإيجابي ، يقول : " فالإيجابيون هم الذين يجعلون من الحياة مادة قابلة للعيش، إنهم مصابيح الهدى. محظوظ ذاك الذي يجد كائنا يميل إليه كل الميل، ويتعلق به كل التعلق، ويتفاعل معه كل التفاعل"([4]). فقارئ القرآن المتدبر إيجابي ، والعالم والداعية في قمة الإيجابية .

---

[1]) ص٢٢ . الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

[2]) ص٦٩ . المصدر نفسه

[3]) ص٧٢ . المصدر نفسه

[4]) ص١٢٣ المصدر نفسه

المعايشة مع السور القرآنية وآياتها :

أورد المؤلف تفسيرا لبعض السور القرآنية ، كنموذج للمعايشة القرآنية ، يستهدي به من يتلو الآيات المعجزة ، ففي سورة الفاتحة التي يرتلها المسلمون في سائر صلواتهم نجدها جامعة كل الخير ، يعلق المؤلف عليها بقوله : " سورة مترابطة، متكاملة، لا تقبل التجزؤ: أولها رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة. عندما يبلغ الإنسان الصراط المستقيم، فإنه يبلغ الطمأنينة، وليس من سبيل إلى الطمأنينة الروحية، سوى سبيل الصراط المستقيم "([1])، فالسورة مناجاة ، وحسنا فعل المؤلف بأن توقف عندها، ونظر إليها كوحدة مترابطة كلية المعنى والأثر ، والمتمثل في الطمأنينة الروحية ، وبتكرار التلاوة للفاتحة ، مع التأمل الدائم في مضمون دعائها ، يتحقق الالتزام بالصراط المستقيم .

يقول: " ندرك بأن الإنسان يرتقي في درجات تلقي معاني القرآن الكريم على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل إيجابي، فيمسي القرآن بالنسبة إليه كتاب تحولات كبرى في محطات حياته، وعن ذاك يُقال عنه بأنه إنسان عاقل" ([2]).

ويقول : "إذ يتميز الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض، بلسان بليغ، يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي" ([3]) .

ويطرح المؤلف عدة أمثلة من القرآن الكريم ، موضحا أن النظرة للمثل القرآني "تكمن في لغته الرمزية وسعة معانيه، التي تنطبق على أشخاص بعينهم، دون ذكرهم بالاسم، وهنا يبقى المثل مفتوحاً، وقابلاً لإنسان أي زمان ومكان، فالمثل – مهما بلغ من قِدم – يستمد تجدده من الحدث الجديد، والواقع الجديد " ([4]) فالمقصد من ضرب

---

[1]) ص٢٠ . المصدر نفسه

[2]) ص٣٣ المصدر نفسه

[3]) ص٤٠ المصدر نفسه

[4] ص٥٠ . الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

المثل في القرآن – { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } ([1])هو التعقل، والتدبر، والتفكر ، المثل هنا يمنح فسحة للتعقل، وأخذ العظة([2]) مصداقا لقوله تعالى : { وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}([3]) .

وعندما يتعايش المسلم مع هذه الأمثلة والقصص ، فإنه يستحضرها في كثير من لحظات حياته ، عندما يجد موقفا مشابها ، أو يحتاج إلى عبرها وعظاتها .

كما تعرّض المؤلف أيضا إلى سورة البقرة ، وامتدت وقفته في ظلالها إلى عشرات الصفحات ، استظل بفيئها ، ونعم بما فتح الله عليه بها ، لذا هو يؤكد أن " سورة البقرة هي سورة منهج حياة جديدة، لمجتمع يستمد تجدده من ثنايا هذه المقومات الجديدة، التي تشرعها وتنصها وتؤسس لها هذه السورة. إنها تقلّب كل الموازين والأعراف السائدة رأساً على عقب، وتسن لهذا المجتمع ما يميزه ويجعله متألقاً ومتأهلاً لنشر رسالة بلوغ الدين درجة الكمال، وإتمام نعمة الله على الإنسان " ([4])، وهي قراءة كلية المقاصد لهذه السورة متعددة الموضوعات والقصص والإرشادات والأحكام ، التي حفلت كتب التفسير بشروحاتها الجزئية ، ونحن في حاجة لشرح كلي

السور القرآنية .. رؤية مكانية كونية :

ونعني بها كيف نظر المؤلف إلى القرآن المنزل في مكة والمدينة ، إنه يرى أن الحكمة الإلهية شاءت أن يتنزل القرآن في مكانين ، مكة حيث القبلة ، والمدينة حيث تأسيس الدولة المسلمة ، فالعلاقة بين مكة والمدينة هي " علاقة تبادلية وتكاملية " ففي مكة كانت أولى الآيات على الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفي الهجرة لمرحلة انتقالية جديدة من مراحل نشر الدعوة ، لقد لبث في (المدينة)، بيد أن العلاقة بدأت تأخذ تكامليتها، لأن القبلة لبثت في (مكة)، وهذا يرمز بأن الرسالة هي ليست مكية فحسب، بل هي مدنية أيضا، والمدينة هنا ترمز إلى رحابة العالم، إنها ليست

---

[1]) سورة البقرة ، الآية ٢٦ .

[2]) ص٥٣ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

[3]) سورة الحشر ، الآية ٢١ .

[4]) ص١٤٠ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

المدينة المنورة فحسب، على قدر ما هي المدينة الكونية، هنا يمكن أن أقول بأن الإسلام منذ هذه المرحلة بدأ في النداء العولمي ، من أجل أن يكون عالم الإنسان عالما واحدا، مع الحفاظ على خصوصيات المجتمعات ([1])، ومعلوم أن مكة تتوسط العالم بموقعها الجغرافي المتميز في قلب كوكب الأرض ، وأن المدينة لها نورانية الإشعاع ، حيث اكتملت الدعوة والدولة ، وكانت مركزا للحكم ، وفيها قبر حامل القرآن ومبلغه (صلى الله عليه وسلم) .

أيضا ، فإن الرؤية المكانية تتجاوز إلى الكونية ، " ربما من أهم التحديات التي تواجه الإنسان لحظة يبدأ وعيه بالتشكل (كونيا) ، هو أنه يرى نفسه أمام وقائع حياتية متناقضة، ليس بوسعه أن يعيش في معزل عن مؤثراتها. هنا يكتشف مدى حاجته إلى ترويض النفس على استيعابها، والإحاطة بها، والوقوف موقفاً وسطيا أولياً منها، حتى يستقر الحدث، ومن ثم يأخذ موقفه المعتدل من واقع هذا الحدث"([2]) ، فالتغيير في الكون والعالم حولنا لن يبدأ بالماديات كما يظن الإنسان الغربي الحديث ، وإنما يبدأ بالوعي الداخلي للإنسان ، بأن يقهر نوازعه وشهواته، ويروضها ، ومن ثم يندفع إلى الكون / الأرض / العالم / الناس .

فتاريخ الإنسان يثبت بأنه كائن مقاوم، فقد استطاع أن يبني الأرض، ويقدم ما يستطيع في سبيل أن يجعل من الأرض مسكناً صالحاً له. ومن جانب آخر، فقد تأججت نزعة الشر لدى فئات كثيرة من الناس، وهذه الفئات، التي تمضي وفق ما يملي عليها الشيطان، تبتغي نشر الفساد والطغيان في الأرض والناس معاً([3])، هذا هو الإنسان العادي ، فما بالك لو كان مسلما قرآنيا واعيا بعقيدته ورسالته .

---

[1]) ص٢٨ . المصدر نفسه

[2]) ص٨٢ الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

[3]) ص١٥٥ المصدر نفسه

التلفظية ومستويات التلقي
في فصل: (التلقي القرآني وترويض النفس)

محمد المشهوري
المملكة العربية السعودية

حاول عبدالباقي يوسف في كتابه (الارتقاء في تلقي معاني القرآن) من خلال فصله السادس (التلقي القرآني وترويض النفس) أن يلامس أثر القول الإلهي في النفس. والباحث في جنبات هذا التلقي يصل إلى مسلمة ظاهرة، هي وجود الأثر في المتلقي؛ فهو خطاب الله الذي خلق الإنسان وعلم خصائصه.

تأتي درجات التلقي بحسب اختلاف مدى قابلية المستقبل لهذه الرسالة، وكيف أنه ربما تؤثر فيه فتحقق الهدف، أو أن متلقيها يعرض عنها ويترك الأخذ بها. هذا القول لا يتنافى مع قولي بمناسبة دراية هذا الخطاب الإلهي لنفوس البشرية–حاشا لله– على العكس تماما فهو يتكامل معه. يأتي التكامل من حيث تنوع النفوس ذاتها، فكل نفس لها ميولها وأهواؤها وما تسعى إليه، وهنا تظهر معجزات القرآن الكريم في خطابه؛ إذ يناسب النفوس كلّها على تعدد طباعها، وأخلاق حامليها، فتنوع الخطاب منشأه تعدد النفوس والطبائع.

يتحدث عبدالباقي يوسف عن فكرة الإنسان وعلاقته بالنفس، هذه الفكرة تستمر بعدد من الملامح، فيبدأ بأيهما يسيطر على الآخر الإنسان أم النفس؟ ويشرح طريقة إمساك أحدهما بالآخر من أجل الانقياد لآيات القرآن الكريم. حدوث هذا الصراع لم تكن الآيات خلوا منه فاستشهد المؤلف بقوله تعالى: [أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى][i].

مناقشتي تنصب من خلال الوقوف على "تلفظية"[ii] السياق القرآني في إرساليته، وهنا أعني[iii] القصد وبغية إحداث الأثر كما يقول جين آدم[iv]، فالفعل الإنجازي يهدف إلى إحداث الأثر المنوط به من خلال مرسلته الكلامية التي يريدها المرسل من المرسل إليه. ويمكنني توسيع الدائرة أكبر ببحث قضية التلفظ المشتملة أيضا على ما عناه أوستين من أنه عالم من التفاعلات في محيطه.

يأتي سؤال مهم نناقش فيه عبد الباقي يوسف؛ هو كيف طرح هذا التفاعل من خلال أثر بنية السياق القرآني في المتلقي؟ هل هذا التفاعل كان في ذهنية المؤلف عندما جعل عنوان فصله (التلقي القرآني وترويض النفس)؟ يمكنني القول: إن هذا التمثل بدا واضحا قاصدا إليه المؤلف من خلال آية استشهد بها على هذه الفاعلية القرآنية في بنية سياقها على النفس البشرية، فذكر قوله تعالى: [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...][v] هذا الاستشهاد كان موفقا؛ فالنفس لا تميل في حياتها إلى أشد من المال والنساء والبنين.

إن موقف الناس ببشريتهم وقت تلقيهم لهذه الآية تجعل الواحد منهم يقف مع نفسه قليلا ويتساءل: إنني فعلا كذلك، وهي فطرة الله في خلقه، إذا هي نعيم فلمَ أُلام عليه؟! لكن هذا التساؤل ما يكاد ينتهي حتى تُختم الآية بما يعيد التفكير وفعل الصواب ليرجّح العقل كفة الحكمة وجعل الإنسان المؤمن ينسى شهوات نفسه فتكون [...وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ][vi] هنا يحدث التحول في التلقي من مجاراة النفس إلى لجمها عن الانسياق المفرط في ملذاتها، بجعلها زائلة، وعند مقارنة الزائل بالخالد، فلا عقل راجح سيختار النعيم المؤقت.

مناقشة هذا الاستشهاد برؤية تداولية نجد أن المؤلف حاول إشراك القارئ لسطوره عموم المخاطبين في الآية السابقة ضمنا، فجاءت الحوارية المضمنة حاكمة

للدلالة "العميقة للتلفظ: ما دامت الآلية الإحالية، والمضمون القضوي، والقوة الإنجازية للجملة في وضعية تخاطبية"[vii]. الوضعية التخاطبية المشتركة بين القارئ وذكر عموم الناس في الآية جاءت من طريقين: الأول: حتمية أن القارئ للآية هو من عموم الناس. الثاني: أن المؤلف وجَّه كتابه للناس، وهنا يأتي منطق إشراك القارئ بمضمون الآية. إذن الآية فيها مركزية خطاب أعلى وهي من الله سبحانه وتعالى، ثم جاءت تقنيات المؤلف للإفادة من هذا الخطاب الرباني في توجيه مبحثه المتعلق بأثر القرآن النفسي على متلقيه.

لا يقف عبد الباقي يوسف عند مستوى إشراك القارئ مع متلقي القرآن، فهو يحاول التصريح والانفضاض من شرنقة جمع خطاب طرفين في موضع واحد بطرح وجه مسالم لتلك النفس التي ليس شرطا أن تدخل في صراع مع الإنسان، إنما هي المسيطَر عليها من خلال الإرشاد القرآني الذي كشف بعض أسرارها، فما عادت عصية تواقة إلى التمرد والخروج عن الحد. يشرح هذا المستوى من التلقي المؤلفُ نفسه بقوله: "عندما نقرأ القرآن، نصبح أكثر معرفة بأنفسنا، حيث يقدم لنا القرآن الكريم مكوّنات النفس، يقدم مزاياها، تركيبتها، ميولاتها. كما يرشد القرآن قارئه الماهر كيفية قيادة النفس"[viii].

لا أستطيع تجاوز هذا الموضع دون أن أثير نقطة للنقاش. كيف للإنسان أن يصل هذا المستوى من التلقي قبل أن يتجاوز المستوى الأول المعني بصراع النفس ومحاولة ردعها، لا سيما خلو الكتاب في مقدمته من العقد[ix] مع القارئ؟ العقد الذي يشير إلى ماهية عقيدة المتلقي، أمؤمن هو بالقرآن أم لا؟ ليس شرطا أن يصرح المؤلف بعقده كأن يقول مثلا في عنوان الفصل "أثر تلقي القرآن في ترويض النفس المؤمنة" ليكون منطلق المؤلف واضحا في نوعية المتلقي ودرجة تلقيه، فالكاتب قد افترض مسبقا أن كل متلقٍ سيسلم له، بينما هذا ليس صحيحا.

صحيح أن القرآن نزل مخاطبا لكل العقول والنفوس، ومن يقترب منه بصدق إقبال سيجد ما يطمئنه، لكن هذا لا ينسحب على ما كتبه المؤلف؛ فالله عليم بنفوس كل خلقه، وهذا لا يتحقق في خطاب الإنسان إلى الإنسان. لتقريب هذه الصورة أضرب مثالا، كأن يأتي أحدهم ويحاول أن يقنع آخر بالإسلام، ومهما أقنع وملك حسن البيان فقطعا لن يفوق بيانه بيان القرآن الكريم بقصد التأثير؛ لعجز الإنسان على إلمامه بكل طبائع النفوس ليخاطبه من خلال كتاب واحد. ومن يقول أن عبدالباقي يوسف تحدث عن أثر القرآن الكريم، ولم يأت بشيء يجاوزه أو يخالفه؟ فأجيب: نعم، لكن المتلقي يفرّق بين القرآن الكريم بوصفه كتابا، وبين كتاب تحدث عن القرآن الكريم، وهنا الاختلاف الذي سأنطلق منه.

أستحضر في هذا السياق قصة الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن الكريم متلفَّظا به من النبي ^. هذا التلفظ بالقرآن الكريم يحمل دلالات خطابية لها أثرها في النفس الإنسانية المتمردة، فجاء الخطاب الإلهي في هذا الموقف أبلغ من أي قول إلى حد التأثير وخوف قريش من أن يؤمن. موضع جيد هذه القصة للموازنة بين الخطاب الإلهي –وأثره الفاعل الجامح– والخطاب البشري، الذي ما كان في وسع محمد ^ إلا استخدامه وهو أفصح العرب وصاحب بيانها، مما يدلل على استشعار رسولنا الكريم ^ لأثر القرآن في النفوس وترويضه لها.

أعود فأقول وحديثي عن توظيف الكاتب للقرآن لا عن أثر القرآن نفسه: إن ما حاوله عبدالباقي في كتابه لشرح أثر القرآن في ترويض النفس رائع جدا للمسلِّمين بأثره، لكنني لم أجد أدنى محاولة لجعل المتشكك في القرآن يقتنع بالأثر والتأثير. فلنعد إلى المقدمة ونرى ما يقول الكاتب: "القرآن الكريم هو دعوة للإنسان، كي تستيقظ حواسه على مدركات الحياة، فيشعر بجدية وحميمية ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين...".

لا أجد ذكرا لعقيدة هذا الإنسان أمؤمن هو أم لا؟ ومن يقول أنه موجه أصلا للمسلمين، فأقول: صحيح. لكن هناك من لا يؤمن بالقرآن، حينها لا يؤثر فيه خطاب الكاتب لشديد تملك غواية النفس، مما يخرجه من مستويات التلقي بالكلية، ولم يعد خاضعا بعدها لسلطة خطاب المؤلف الوارد في المقدمة؛ فالإعراض موجود حاصل. تلمَّس المؤلف شيئا من هذا بداية الفصل[x] ربما دون أن يستحضر هذا عندما قال: "النفس تتبع توجهات صاحبها، لا توجد نفس لا ترضخ لأمر حاملها".

وأعتذر للمؤلف أنه لم يرد من كتابه في المقام الأول أن يكون أداة حجاجية لتقديم الرؤية القرآنية التي لا تقبل النقاش عند المسلمين؛ "حيث إن قدرتنا وكفاءتنا في التكلم، إنما هي موضوع جوهري لفلسفة العقل"[xi]، إنما جعل خطابه في الكتاب عاما لكل متلقٍ، ممن هو خاضع لنفسه المتمردة أو مسيطر عليها، تاركا مدى الاقتناع من عدمه للقارئ. وفي ظني أن استدعاء شريحة أوسع وقت التأليف من خلال مواقفهم المتباينة سيجعل الكاتب يعيد النظر فيما كتبه ويدلف إلى تقويته بجعله يخاطب المعرِض والمسلِّم.

لا تبقى التلفظية خارج بنية السياق، فلا تستطيع اللفظة أن تؤدي دورها المنوط بها من خلال أفعال أكلام إلا بوجودها داخل بنية سياقية تحتويها، فعلى" الأقل في كل موقف تواصلي شخصان، أحدهما فاعل حقيقي، والآخر فاعل جهة الإمكان"[xii]. هنا أستدعي حالة كامل صفحات الكتاب الذي كتبه عبدالباقي يوسف، وما حواه من ألفاظ قصد بها القارئ، ففي تأملٍ نمطي مسلَّم به أنه وقت تأليفه استحضر أن يكون هناك قارئ لهذا الجهد. هذا الاستحضار هو ما يسمى بالافتراضات المسبقة[xiii] عند المؤلف عن متلقيه لخطابه/كتابه، ولا أستطيع قياس الافتراضات المسبقة إلا بعد محاولة تقصي ردات فعل الكتابة على طول صفحات الكتاب وهو متعذر الآن.

إن القارئ المتلقي ضمن أفق الرصيد الديني، المتشارِك مع المؤلف في مرجعياته الثقافية والدينية[xiv] وقت إمساكه بهذا الكتاب[xv]، ما يكاد ينفك عن نورانية حرفه، وروح أمله، وجمال روحه؛ فهو ينطلق من مولِّدٍ قوي انطلق منه المرسِل/الكاتب إلى رحاب المرسَل إليه/المتلقي؛ هو القرآن الكريم حيث يشتركان في التصديق به، والإيمان بنفعية ما جاء لأجله.

من خلال فكرة "ياوس" في حديثه عن التلقي وإعادة بناء الأفق[xvi] نجد المؤلف يوجّه رسالته مباشرة للمتلقي في نهاية الفصل ولم يعد يجنح إلى التضمين أو التلميح فيصرح بدرجة أعلى باستخدامه القيمة التأشيرية[xvii] بما يريده فيقول: " أنت الآن تجلس إلى مائدة عليها ألوان متعددة من طعام شهي وشراب لذيذ، لقد منحك الله هذا الطعام، ومنحك شهية وقابلية لتناول هذا الطعام، بيد أنك – ومن تلقاء نفسك – تترك شيئا على هذه المائدة، قبل أن تضجره، بل تنهض وفي نفسك رغبة للبقاء مزيدا مع مسامريك.هنا تشعر بقوتك على نفسك، وبسيطرتك على زمامك، وأنك لا تنقاد، بل تقود، لا تَرضخ، بل ترُضخ. ثم ترى هذا بشكل تلقائي يجري على سائر ممارساتك وسلوكياتك في الحياة، وفي الناس، وفي نفسك".

في الختام نخلص إلى أن عبدالباقي يوسف في هذا الفصل، انطلق من قاعدة ودائرتين، فالقاعدة استخدام التلفظية الجانحة نحو القصدية وإحداث الأثر بواسطة فعل الإنجاز الكلامي[xviii]. والدائرتان فداخلية وخارجية، الداخلية اعتمدت على النص القرآن والحديث عنه وقت الإشارة إلى النفس وتلقيها للقرآن، ومنها اتجه إلى الدائرة الخارجية التي طوعها لضم القارئ – المتشارك معه في مرجعياته الثقافية – لخطاب القرآن الكريم الحامل للنفس بين جنبيه، فهي علاقة تكامل مرحلية لا تنفك إحداهما عن الأخرى.

يذكر أن كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) للروائي السوري عبد الباقي يوسف ، وقع في ٣٠٠ صفحة، وصدر عن الاتحاد الاسلامي الكردستاني في أربيل ، كردستان العراق ٢٠١٤

الهوامش:

[1] سورة النازعات: آية (٤٠-٤١).

[1] التلفظ مصطلح يشوبه الكثير من التداخلات واختلاف الرؤى، فكل منهج نقدي يرى التلفظ من نافذته الخاصة به، وهذا لا يقلق بل يدل على الشمولية وعمق المصطلح بحيث تعطي كل باحث ما يريده من أدوات بحسب المنهج الذي يكتب تحت مظلته.

[1] وذلك خروجا عن بعض ما يحيل إليه المصطلح من خلفيات بحثية غير مقصودة، وتركيز نظر القارئ على مقصود الباحث.

[1] انظر: د.عبد الواسع الحميري ، ما الخطاب ؟ وكيف نحلله ؟ المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر (مجد)، بيروت/لبنان، ط١، ٢٠٠٩ م.

[1] سورة آل عمران: آية ١٤.

[1] المصدر السابق.

[1] فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.ت)، ص:٤.

[1] اعتمدتُ على نسخة إلكترونية في البحث والنقل.

[1] العقد: هو محاولة اتفاق يبرمه الكاتب مع المتلقي لتوجيه فكره ورؤيته تجاه الهدف من الكتاب. وقد يكون من خلال المقدمة، أو الإهداء، أو التمهيد، أو حتى بطرح بسؤال يستفز به قارئه. طرحت هذه الفكرة كون الكتاب كُتب بلغة أدبية فيه توظيف لكثير من التقنيات الكتابية، مما يبعده عن المسحة الدينية المكثفة التي هي بالضرورة عقد واضح المعالم.

[1] أي: الفصل السادس، وهو ما تناولته بالبحث.

[1] فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠٠٠، ص: ٢٢٧.

[1] المرجع السابق، ص: ٢٥٨.

[1] انظر: جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠م، ص:٥١.

[1] انظر: كريمة بنت دغيمان العنزي، تلقي النقد السعودي قصيدة النثر، مطابع جامعة الملك سعود/كرسي الأدب السعودي، ط١، ١٣٤٥هـ/٢٠١٤م.

[1] عنيت: كتاب (الارتقاء في تلقي معاني القرآن).

[1] انظر: روبرت هولب، نظرية التلقي، ترجمة عزالدين إسماعيل، نادي جدة الأدبي، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. ملحوظة: أحالني إلى هذا المرجع كتاب: كريمة بنت دغيمان العنزي، مرجع سابق عندما عرضت للحديث عن التلقي والأفق.

[1] القيمة التأشيرية تحديد المعنى بالقول عموما. انظر: جورج يول، مرجع سابق، ص: (٢٧)وما بعدها، (٣٩) وما بعدها.

[1] انظر: جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة: عبدالقادر القنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٨م.

الأنساق المهيمنة في كتاب

الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم

أثير محسن الهاشمي
العراق

يكرّس الكاتب عبد الباقي يوسف في كتابه (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم) المفاهيم الجمالية للخطاب القرآني ، ويتطرق إلى محاور وانساق مهيمنة للارتقاء في درجات التلقي لمعاني القرآن الكريم ، ومن الأنساق المهيمنة في هذا الكتاب (وعي القارئ – جماليات الخطاب القرآني – العقل / اللسان) الخ من الأنساق المهيمنة التي تحتاج إلى وقت اكبر ومساحة أوسع ، لعرضها وتفصيلها ، لا يسعنا إلا أن نحيي للكاتب الروائي السوري عبد الباقي يوسف وهو يفصّل لنا مواضع الجمال في معاني القرآن الكريم ودرجات تلقيه ، على وفق منهجية جليّة وغير معقدة ، بالإضافة إلى شرحه وتفصيله وأدلته الشاملة لما اختاره من أمثلة قرآنية ، ودعمه لها من خلال الأحاديث النبوية الشريفة .

– وعي القارئ (المتلقي) :

يطرح الكاتب فكرة " وعي القارئ " المتجدد لثقافته والواعي لقراءته ، فالقراءة الحق تحتاج إلى إدراك ووعي لما يُقرأ ؛ لذلك نحن إزاء كتاب يهتم بتشكيلات القراءة

ووعيها تنطلق من منظور ثقافي يُحدد فكرة القراءة وتنوعها وتجددها في الآن ذاته كما يبيّن ذلك الكاتب : " إن كل قراءة للقرآن الكريم تقدم للقارئ ما لم تقدّمه قراءة سابقة ، وتبثّ إليه أنوارا لم تبثها قراءة سابقة " (١)

إن منظومة القراءة تحتاج دراية تامة بالكلمات ومعانيها وانساق الخطاب القرآني وجماليته ، خاصة تلك القراءة المتعلقة بالقرآن الكريم وآياته المباركات ، وعلى هذا الأساس نجد ان القارئ المتدبر كما يسميه الكاتب هو من يكشف (بعض) من جماليات القرآن وأنساقه الفكرية ، لا (جميعه) ؛ لأننا إزاء إعجاز قرآني متكامل (البلاغة ، النظم ، الصوت ، الخ) وعلى وفق ذلك فأن القرآن الكريم بكليته يكون كتابا جامعا ومُعجزا لا تتحقق غاية القارئ أو المتلقي بسهولة ، يُحتاج إلى دراية ووعي تام ، بالإضافة الى جزئيات القرآن الكريم من صوت معجز وبلاغة اعجز ونُظم يُبهر العقول ، الخ .

كل ذلك وغيره يدخل ضمن جمالية اللغة بكلّ تجلياتها فكيف لا وهو الخطاب الإلهي المُنزّل من السماء : " كل تأمل كل نظرة كل قراءة تحقق حلاوة : بسم الله الرحمن الرحيم ..) (٢)

إن الارتقاء في درجات تلقي القرآن الكريم كما ينصّ عليها الكاتب تكمن في ماهية الكلمة ككلمة والجملة كجملة : " انظر إلى كلّ حرف من حروف البسملة التسعة عشر ، التي ميّزها الله بمرتبة أن تكون فاتحة كتابه الحكيم ، تأمّل لفظ الجلالة ، انظر جمالية تنسيق الكلمات الأربع " (٣)

ويعبّر عبد القاهر الجرجاني عن بلاغة ونظم القرآن الكريم قائلا " وما من حرفٍ أو حركةٍ في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجبا في موقعه والقصد به ، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة ، إنما تلك طريقة في

النظم قد انفرد بها القرآن ، وليس من بليغ يعرف هذا الباب الا وهو يتحاشى أن يلم به من تلك الجهة أو يجعل طريقه عليها ، فأن اتفق له شيء منه كان الهاما " [٤]

يقرن الكاتب في درجات وعي القارئ ما بين جمالية الخطاب القرآني من جهة والمضمون الديني من جهة أخرى .

كما يتطرق الكاتب إلى الجانب الأخلاقي المُتشكل على وفق منظومة القرآن الكريم ، والمُتعلق بوعي القارئ ودرجات تلقيه ، فالقارئ الجيّد غير القارئ المتوسط وغير القارئ العادي ، فلكل قارئ وعيه وفكره ومميزاته في القراءة والتلقي ، لذلك يحتاج تلقي القرآن الكريم إلى درجات وعي أكبر وإدراك أكثر تمتاز فيها القراءة التدبرية لتكون ذا رؤية صحيحة كما يشير الكاتب إلى ذلك [٥]

ولكل جانب من القرآن الكريم بحاجة إلى ثقافة خاصة ، فالجانب الصوتي مثلا يحتاج إلى دراية تامة في المنهج الصوتي وسماته الخاصة ، وكذا الحال مع الجانب النفسي وهكذا .

ويعد الأسلوب التصويري للقرآن الكريم " أداة فعّالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني ، كما يُنشئ علاقة ايجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه وبين السامع أو القارئ كما يتضمنه التصوير الجمالي من حركة متدفقة تبعث الحياة فيما يُسمع أو يُقرأ من القصة والتصوير الجمالي الحي يشيع جوّا من الحياة في ثنايا القصة بحيث تنطلق الأخيلة وتتابع الصور على الأذهان " [٦]

إن القراءة جانب مهم في إنتاج المعنى الصحيح ، المتوافق شكلا ومعنى مع النص ، فالقراءة المتعمقة والتي تغور في سبر الألفاظ ومعانيها هي ما تضفي إلى دلالاتها :

" إن قراءتك المتأنية لمعاني ودلالات قراءة البسملة جعلتك تقبل على حمد الله ورب العالمين ومعنى لفظ الجلالة : يعني المألوه المعبود حبا وتعظيما "[٧]

-جمالية لغة الخطاب القرآني :

يذكر الكاتب ان جمالية الخطاب القرآني تكمن في رقي الكلمة ودلالاتها اللغوية والمعنوية ، إذ ان ما يؤديه الخطاب القرآني من جمالية سواء على مستوى الجزء أو الكل يندرج ضمن مفهوم الخطاب الصادر من الأعلى للأدنى ، كما في الآية القرآنية : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [٨]

يبيّن الكاتب ان ذلك التشبيه في الآية الكريمة ترتقي في بديع المعنى القرآني بقراءتك – الأستنارية – لتعرفك على مثل نور ربك في علاقة بالغة العذوبة بينك وبين جمالية الخطاب القرآني وأنت في ذروة محراب عبادة قراءة القرآن الكريم [٩]

ان المعرفة الذاتية لتشبيهات القرآن الكريم للنور الإلهي يفرض علينا عملية التأمل والتدبر في تلك الصور وذلك المعنى فيكون لزاما علينا ان نتعلم ماهية القراءة الصحيحة والواعية على أساس التأمل والإدراك .

ان الدلالات والصور التي يستشهد بها الكاتب غنية للمتلقي ، يعكس فكرة الأعجاز القرآني وخطابيته الجمالية او جماليته الخطابية .

فـ (النور ، الماء ، الأرض ، السماء) جميعها تشكل منبرا للجمال ومعناه ، والحياة وأسرارها :

(وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كُلوا من طيبات ما رزقناكم) [١٠]

يتجه الخطاب الجمالي للقرآن الكريم باتجاهين :

الأول : الألفاظ وأشكالها وبلاغتها .

الثاني : المعاني ودلالاتها .

ومن ثم يوضح الكاتب ان قارئ القرآن يرى " ان الله يضرب الأمثال ؛ كي يبيّن له بعض الحقائق ومن ذلك ما قيل عن النبي عيسى عليه السلام ، حيث شبه الله خلقه بخلق آدم عليه السلام ، واخبر الله عباده بخصوصية خلق عيسى ، وضرب به مثلا آدم عليه السلام " [١١]

ويستشهد الكاتب بقوله تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون " [١٢] .

-العقل / اللسان :

إن علاقة الإنسان بالقرآن الكريم علاقة روحية وعقلية ، فالقراءة والوعي الفكري والثقافة الدينية متعلقة بعقلية الإنسان وإدراكه ، إذ ان خصائص العلاقة كما يعددها الكاتب مرتبطة ما بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري : " بين الله كمرسل ، وبين الرسول كمبلّغ ، وبين الناس كمتلقين بمزايا الخطاب اللغوي الذي هو تكريم للإنسان الذي أكرمه الله تعالى بقسمة العقل ، ثم وجه خطابا إلى عقلهِ ، هذا العقل الذي تكلل بنعمة اللسان الذي ينطق عنه ، وهو يخاطب عقلا آخر ، فيكون حديث الناس ، حديث العقول للعقول " [١٣] .

يعكس اللسان ماهية العقل وفحواه سواء في الوعي او اللاوعي ، وبالتالي يكون اللسان أداة للعقل يبوح ما يبوح به العقل ويستر ما يشعر فيه ، وقد استشهد الكاتب بحديث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم : " أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له : اقبلْ فأقبل . ثم قال له ادبرْ فأدبرَ فقال عز من قائل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز علي منك . بك أخذ وبك اعطي ، وبك أحاسب ، وبك أعاقب " (١٤)

ان ماهية العقل مرتبطة باعتبارات شتى اهمها التفكير والتدبر ، والحلم كما يصف الكاتب هو دليل رجاحة العقل بدليل قوله تعالى (أتأمُرون الناسَ بالبرّ وتنسون أنفُسكُم وأنتم تتلون الكتابَ أفلا تعقلون)(١٥) .

ان فقه التلاوة ومعناه يختصر الطريق أمام العقل ، فالتلاوة عند القراء: قراءة القرآن الكريم متتابعاً كالأوراد والأسباع ، ويراد بترتيل القرآن: تلاوته تلاوة تبين حروفها ويتأنى في أدائها ليكون أدنى إلى فهم المعاني.(١٦)

فالإنسان كما يعبّر عنه الكاتب يرتقي " في درجات تلقي معاني القرآن الكريم على قدر ما يتمكن من توظيف طاقاته العقلية بشكل ايجابي فيمسي القرآن بالنسبة اليه كتاب التحولات الكبرى في محطات حياته وعندئذٍ يقال عنه بأنه إنسان عاقل " (١٧) .

إن سلّم الصعود او الارتقاء الى المستوى الذي يصل به الفرد الى مرتبة العقل ليست بالصعبة وليست سهلة في الوقت ذاته فما هو معروف ان الناس مراتب ، كلّ ومرتبته العقلية والفكرية ، فصاحب العلم غير الجاهل ، كما في قوله تعالى : (قُلْ هل يَسْتوِي الذين يعلمون والذين لا يعلمُون إنّما يتذكر أولُوا الألبَاب) (١٨)

العقل يورث العلم فيكون غنيا تابعا له ، والعكس صحيح ، وفي ذلك يقول الأمام علي في وصية لأبنه الحسن عليهما السلام :(يَا بُنَيَّ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً، لاَ يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنّ

إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ، وَأَوحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ)[١٩]

كما ان " الذوق اداة العقل والوجدان ، لا يصقل إلا بالعلم ، و لا يكمل إلا به ، ولا يوفق إلا بكثرة مران الحسّ والعقل على رؤية الجميل تلو الجميل " .[٢٠]

وعلى هذا الأساس نقول إن ما يميز الإنسان هو العقل لا غير ، فالغني غنيٌّ بعقلهِ وادراكه ووعيه ويكون على " قدر ما يتمتع به العقل ، ويتميز أكثر على قدر ما يوظف هذا العقل في سائر وقائع حياته اليومية ، فالعقل نعمة وكذلك يمكن ان يودي بصاحبه الى المهالك " [٢١]

وهكذا يأخذنا الكتاب إلى انساق مهمة في الخطاب القرآني المُعجز ، انه كتاب يحتاج إلى أكثر من قراءة وقراءة ؛ لما يتميز من معلومات قيّمة ودراسة وافية لجماليات اللغة القرآنية .

الهوامش :

١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم ، عبد الباقي يوسف ، مطبوعات الاتحاد الاسلامي الكردستاني ، ط١ ، اربيل ، العراق، ٢٠١٤م : ١٨

٢- المصدر نفسه : ١٩

٣- المصدر نفسه : ١٩

٤- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، مطبعة المدني ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٩٢م : ٤٧٤

٥- ينظر : الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٢٢

٦- القصة في القرآن " مقاصد الدين وقيم الفن " ، محمد قطب عبد العال ، دار قباء ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م : ٣٣

٧- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم :٢٦

٨- سورة النور : ٣٥

٩- ينظر الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٨٤

١٠- سورة البقرة : ٥٧

١١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٨٩

١٢- آل عمران : ٥٩

١٣- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٤٧

١٤- المصدر نفسه : ٤٧

١٥- سورة البقرة : ٤٤

١٦- فتح الباري ، الامام الحافظ ابن حجر ، طبعة الريان : (٧٠٧/٨)

١٧- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٤٧

١٨- سورة الزمر : ٩

١٩- نهج البلاغة ، مجموعة خطب الأمام علي عليه السلام ، جمعها الشريف الرضي ، تحيق محمد عبد : ٨٧٥

٢٠- البناءات الجمالية ي النص القرآني ، رائد مصباح الداية ، (رسالة ماجستير) ، الجامعة الإسلامية "غزة " ، ٢٠١١ م : ١٢

٢١- الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن الكريم : ٤٩.

مرتبةٌ الفهم الصحيح للقرآن في كتاب

بقلم : أندره عيد قره
سوريا

لا شكّ أنّ المؤسسات التي تقوم بنشر سلاسل الكتب بشكل دوري ، تُساهم بقدر كبير في إعلاء شأن المعرفة والثقافة عموماً ، فكيف بها إذا قامت باختيار كتابٍ تفسيريّ ، يتعلّق بالعبادة والدين ! لروائي له أعمال روائية هامة ، سيما وأنّ التفسير هو للقرآن الكريم ... إنّه لَفِعلٌ تستحقّ عليه كل الثناء والتشجيع ، والشّكر أيضاً ، لما له من آثارٍ تنويريّة تحمل الكثير من المعاني الإيجابيّة .

فهذا يعني أن هذا العمل القرآني سيُكتب بأسلوب روائي مشوّق، وبما يتمتع به الروائي الكبير من حساسية مرهفة تجلّت في أعماله الروائية مثل: إمام الحكمة، دين، خلف الجدار، الآخرون أيضاً، روهات، بروين، جسد وجسد، هولير حبيبتي، وهذا بذاته يضفي على الكتاب ميزة متفرّدة في مكتبة التفسير القرآني.

كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) للأديب والروائي السّوري عبد الباقي يوسف ، يأتي في ٣٠٠ صفحة ، وقد أُنجز في تسع سنوات ، من العمل الجّاد ، ونستطيع القول الشّاق أيضاً ، الذي بدأ بكتابته في سوريا ، وأنهاه في أربيل العراق ، معتمداً لغة سهلة جذّابة ، وسبك صحيح شيّق ، لكلّ من تناوله ، للاستزادة أو الاطلاع .

سأتناول عباراتٍ لامستني كقارئة لكتابٍ تفسيريّ دينيّ ، ربما يختلف عن معتقدي كمسيحية ، ولكنّه يتوافق وتنشئتي وثقافتي وفكري .

وهذا ما شدّني إلى قراءة الكتاب، بل والكتابة عنه، فهو جعلني أنظر إلى الاسلام نظرة جديدة، واستطاع أن يقنعني، خاصة في هذا الميقات الحرج الذي تسعى وسائل إعلام عالمية وإقليمية ضخمة للنيل من الإسلام وإعطاء صورة مشوّهة عنه، فتعالوا جميعاً إلى متن هذا الكتاب كي يعلمنا كيف نتجاوز تلك الصور المشوّهة غير الصحيحة، ونرتقي عن ذلك كله في تلقي معاني القرآن كما أنزله الله وليس كما استغله المستغلون لغايات شتّى.

عبارات ومعاني أوقفتني ساعات طويلة وستوقفني ساعات طويلة:

لاأغالي إن قلت أن الكتاب كله بكل حروفه وسطوره وصفحاته، أوقفني، وسيبقى يوقفني، ويبقى مرجعاً وحجة لي في حياتي القادمة، بيد أنني أختار جملة من ذلك، ولعلي أقدم دراسة مستفيضة في مناسبة أخرى عن هذا العمل الفذ .

يقول الكاتب:

– " **... الإنسان الذي في الأرض ، ليس لديه شيء يقدّمه لربّه الذي في السّماء ، لأنّه لا يملك خزائن كلّ شيء ، ولا يملك الجديد الذي يمكن أن يهديه إلى ربّه** " ، " **فكلّ شيء أتاه من السماء** " [١]

إنّها نصوع الحقيقة ، فلا إهداءات يمكن للإنسان أن يقدّمها لله عزّ وجلّ ، فالنِعم والعطايا هي التي يمنحنا إيّاها الله ، وبالمجّان ، وما تضرّعاتنا وصلواتنا إلاّ فروض تخولنا أن نكون نحن الرابحين دوماً .

– " **علاقة الإنسان بربّه هي كعلاقة الأرض بالسماء ، السماء التي لا تحتاج الأرض حتّى تكون سماء ، بيد أن الأرض تحتاج السماء حتّى تكون أرضاً** " [٢]

---

[١] – الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن – عبد الباقي يوسف – طباعة مجلة الحوار العراقيّة – ٢٠١٤ م – ص ١٢ .

[٢] – المرجع السابق نفسه ص ١٣ .

هي فكرة توضّح احتياج المخلوق للخالق دوماً ، فالإنسان دائم التطلّع للسماء التي فيها عرش الله ، وكم يثمر هذا الإنسان حين تكون علاقته متينة بربّه ، لا تشوبها شائبة ، وثماره تلك تكون واضحة جليّة ناضجة ، يجنيها أيضاً ويتقاسمها مع بني جنسه ، من محبّة وتسامح وتقى .

- " **إنّه كتاب التحوّلات الكبرى في حياة الإنسان (أيّ القرآن) ، إلى جانب أنّه كتاب التحوّلات الكبرى في سلسل المنجزات البشريّة على مختلف الصعد** " [١]

ولو أنّ القرآن لم يكن يمتلك تلك التحوّلات والإحاطة بكل جوانبها ، ربما كان الله جل جلاله ، قد أنزل المزيد من الكتب ، ففيه جواب لكل سؤال، لأن لاكتاب من بعده، وأن كل اكتشاف وكل جواب على سؤال سوف يأتي في زمانه ومكانه، وبذلك يغتني القرآن ويمتلك مستقبل الانسان.

- " **إنّ كلّ قراءة للقرآن الكريم تقدّم للقارئ ما لم تقدّمه قراءة سابقة وتبثّ إليه أنواراً لم تبثّها قراءة سابقة** " [٢]

حالة صحيّحة تماماً، حيث أن كلام الله وآياته ، لم تكن موجهة لأناسٍ معيّنين ، أو تناسب فترة أو حقبة معيّنة ، إنّما هي صالحة لكل زمان ، ولكل فرد وجماعة ، لكلّ مجتمع وأمّة ، إنّها كما المورد المعطاء ، فكلما نهلت منه ، كلّما أغدق عليك بوافر عطائه ونعمه ، لتروي ظمأك ، فتهدي بصرك وبصيرتك .

- " **... يبقى الإسلام كبيراً ، واسعاً ، ومستوعباً الناس كافة ، على مختلف معتقداتهم وميولاتهم ونزعاتهم ، وبذلك يحقق سمات العالمية الإنسانيّة بامتياز** " [٣]

استوقفتني هذه العبارة كثيراً ، وأعدتُ قراءتها كثيراً ، وسوف أعيد كما يعيد غيري قراءتها كثيراً، فما كنت يوماً مقتنعة إلاّ بهذه الفكرة ، وخاصّة في بلادنا ، حيث

---

[١] - المرجع السابق نفسه ص ١٦ .

[٢] - المرجع السابق نفسه ص ١٨ .

[٣] - المرجع السابق نفسه ص ٢٢ .

يستظل تحت عباءة الإسلام العديد من الطوائف والأديان ، في جوّ من السماحة والتسامح والتآخي ، تكاد تنعدم فيه كلمة (الآخر) بمعنى الاختلاف .

– " **حياة لا إله فيها ، أرض خالية من نفحات الله** " [١]

إنّها عبارة تحريضيّة لكلّ إنسان قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، وكيف تكون حياته جرداء خاوية، كأرض قاحلة لا زرع فيها ولا خصوبة .

– " **مع قراءة القرآن الكريم يعترينا إحساس عميق بمسؤولية ورهبة القراءة . إننا نشعر بعظمة الكلمة إرسالاً وتلقياً ، ونكون قد تهيأنا جيداً حتى نتلقّى الكلمة** " [٢]

إنّها الروحانيّة التي يلمسها المؤمن بشفافيتها، عندما يكون في تماس مباشر وتواصل مع كلام الله ، فالإحساس برهبة القراءة وورعها تقرب المؤمن من مناجاة خالقه .

– " **إنّ بعض القراءات غير المتدبّرة للقرآن الكريم ، قد تجعل من قارئها متشدّداً ، وقامعاً لنفسه إلى درجة الكبت** " [٣] :

وكم رأينا بيننا أمثلة حية من البشر ، بنماذج لا تعدّ ولا تحصى ، قد حفظت كل ما هو مكتوب فقط ، فتشدّدت وتعصّبت وتعنتت ، وأغرقت في الغلو .

وهنا لابد لي من القول بأنني تمنّيت على الكاتب لو أنّه تناول القرآن الكريم كاملاً في كتب قادمة وفق هذا المنهج التحليلي البارع المالك لكل مقومات وحجج الإقناع، فتطرّق لجميع آياته ، شارحاً لنا ومفسراً بطريقته الناجحة هذه ، ما شُرح عند بعض المفسرين بكثيرٍ من التعصّب ، وبالتطرّف ، وعند آخرين بكثير من التعقيد والإبهام ، حيث كدنا نحتاج لشارحٍ ، يشرح لنا ما قيل بأنّه قد شُرح .

---

[١] – المرجع السابق نفسه ص ٤٥ .

[٢] – المرجع السّابق نفسه ص ٩٢ .

[٣] – المرجع السابق نفسه ص ١٢٢ .

مرتبـة الارتقاء القرآني

إنّ الأديب عبد الباقي يوسف ، لَهو غنيّ عن التعريف ، حيث اشتهر بأعماله الروائية والقصصيّة أيضاً ، والتي تصف في معظمها الحياة الكرديّة – السوريّة ، حيث أن قضيّة شعبه حاضرة دوماً بكل إخلاص ووفاء منه في كل ما تمثله ، وما كُتُبِه التي قد جاوزت العشرين عشر كتاباً ، صادرة عن وزارات، ومؤسسات ، واتحادات ثقافية وعلمية في مختلف البلاد العربية والاسلامية ،إلاّ غيضاً من فيض عطائه ، ولعل ذلك هو الدافع خلف الكثير من الدول لتدريس أدبه في المناهج الدراسية، وما الجوائز الكثيرة التي حصدتها تلك المؤلفات من سائر الدول العربية ، إلاّ نتيجة مواظبته وفهمه وإدراكه وسعة أفقه ، ووعيه لكلمة إبداع ، وإحاطته بأصولها وامتلاكه لمفاتيحها.

إنّ قراءة هذا الكتاب ، لَهي محاولة للوصول بنا لاتخاذ موقف وسطيّ ، كي نجيد العلاقة مع ذاتنا والآخرين ، ونحسّن علاقتنا مع الله الخالق ، فتجعلنا قادرين على فهم القرآن الكريم بانفتاح ، بعيدين عن التشّدد والعصبيّة ، وفي الوقت ذاته بعيدين عن التراخي ، فقراءة القرآن تحتاج إلى قراءة بالشكل الصحيح لتلقّي مفاهيمه ، والوصول لمراميها بكل أبعادها، وما كان مضمون هذا الكتاب إلاّ مرتبة من مراتب الارتقاء حقاً في درجات تلقي معاني القرآن الكريم .

الارتقاء في درجات تلقى معاني القرآن
كتاب في كيفية الارتقاء القرآني

محمود أحمد حسانين

مصر

منهج الكتاب في تلقي المعنى القرآني

الذِّكْرَ وهو القرآن كما جاء في كثير من التفاسير، وكما جاء في متن الكتاب أن هناك علاقة قوية بين العبد وربه وقوة جاذبية جبارة لتقويم الإنسان وتقوية علاقته بالخالق، فحينما يخلو المؤمن ويمسك بكتاب الله تشمله الطمأنينة و تتغمده السكينة، يرى من عظمته سبحانه وتعالى.

وكما يبيّن مؤلف هذا الكتاب الأديب والروائي السوري الكردي الأصل عبد الباقي يوسف، فان القرآن هو أيقونة التحول في الكون،فإذا نظرنا إلى كلمات الله في كتابه بداية من قراءة الفاتحة، فنحمد الله ونقدسه ونقر بأنه هو مالك كل شيء في السماوات والأرض، ولقد أفاض المؤلف من خلال دراسته المتعمّقة، في وصف عظمة الآيات واستجلاء كيف أن الله عز وجل، يسد بها الأبواب أمام الكافرين الذين يظنون انهم ملكوا الدنيا، فنرى ما وضحه أديبنا في أول القرآن أن الله هو مالك كل شيء بلا استثناء، مالك يوم الدين (يوم القيامة) وملكوت السماوات والأرض، ولقد كان تناول الكتاب لقضية مهمة جدا وهي أن يخلوا الكون من دين قويم وعبادة صحيحة، فإذا نظرنا للدنيا بدون دين وعبادة، ستكون الهمجية وخراب الدنيا.

من هنا، فإن منّة الله تبارك وتعالى بنزول دين يقيم للإنسان قيمته وينير له ظلمات الكون ويجعله يحاول إثبات أشياء جليه، فهي رحمة منه جل وعلا بالإنسان، وهذا ما يجلو في دين الاسلام.

مسالك الارتقاء القرآني

وقد أوضح الكتاب في مضمونه أنه حينما نزل القرآن الكريم مكتمل أركان البلاغة والمنهاج الذي عجز أمامه كل إنسان يمتلك فصاحة اللغة، ثم نجد الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم بليغاً بالحروف العربية التي تحدى بها العرب الذين كانوا بالفصاحة والشعر واللغة التي كانوا يتباهون بها، فكان ارتقاء قارئ القرآن في متعة العطاء هي عباده المخلصين العابدين الذين استحوذوا على رضى الله وعبدوه وأطاعوه بالغيب مؤمنين بقضائه وقدره، فقد نجد أن في القرآن أشياء ينسبها الله لنفسه كأسرار السماوات والمخلوقات وكل الغيبيات كالروح والخلق.

ثم جعل للإنسان أشياء يستنبطها من خلال الفقه في الدين، وقد أسهب هذا الكتاب القيّم في أبواب بلوغ هذا الاستجلاء، أو الاستنباط بما يبلغ من خلاله منزلة الارتقاء القرآني، حتى يغدو المرء مرتقياً بالقرآن، فتفوح منه رائحة القرآن، وقد تميّز الكتاب هنا بقوة بالغة في ترك بالغ الأثر في النفس، وقوة الإقناع وفق أسلوب أدبي روائي كان له شديد الأثر في الاستمتاع بمنارات هذا التلقي، وبعد أن يعرف المؤمن هذا الحقيقة يتجه إلى الله أن يهديه الصراط المستقيم هذا الصراط الذي أنعم الإله به على عباده المخلصين العابدين الذين استحوذوا على رضى الله وعبدوه وأطاعوه و أقاموا شرائعه وامتثلوا لرسوله الكريم، الذي أرسله ربنا العظيم لقومه هدى ورحمه، فمن آمن به فاز.

يقول الكتاب في مقدمته: (وهنا لا بد من القول إن كتابة الرواية قد قدّمت لي الكثير في تسلسلية الفصول، والتركيز على تكاملية مضامين هذه الفصول، بحيث تتحوّل الفصول إلى حلقات متداخلة مع نسيج بعضها البعض. وفي اعتقادي لولا عملي الطويل في مجال الرواية لما كان ذلك ميسراً، ولربما جاء البحث في منأى عن هذا التركيز، كما أن ذلك جعل تناول الموضوع بلغة أدبية قريبة إلى المسرود الروائي، بحيث بدأتْ تتجلى فيه مقومات التشويق، فبات كل فصل يفضي إلى فصل آخر،

على قاعدة بنية الكتاب الفنية، وفق الفكرة التي اشتغلتُ عليها زهاء تسع سنوات، فقد بدأتُ كتابته في سورية، وقد انتهى مطاف الكتابة به في أربيل، عاصمة إقليم كوردستان العراق) .

ثم نجد المعجزة التي ألجمت أمة الكفر حينما نزل القران الكريم حاملاً البلاغة والمنهاج الذي عجزوا أمامه ، ثم نجد الإعجاز اللغوي في القران بليغاً بالحروف العربية التي تحدى بها العرب الذين كانوا بالفصاحة والشعر واللغة التي كانوا يتباهون بهاكما أشرنا، فيجد المؤمن الهُدى وعدم الشك في آياته، فهو الذي سينير ظلمات الجاهلية وإن لم يكن هناك ضياء، ففي غياهب الظلمات دائما ما يحطم الأقوى الضعيف، وهكذا كان الحال قبل سطوع نور الإسلام

من جهة أخرى، يشرح القرآن إن من الناس من ينافق بالإسلام وما هو بمؤمن كما أخبرنا القرآن الكريم، فيقول الله جل جلاله: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (البقرة:٨) نجد أن القرآن الكريم قد وصف للإنسان خلقه بمنتهى الصدق والجمال حيث وصفه الله بقوله " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" كذلك يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" التين (٤) أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، وسخر لك أيها الإنسان كل شيء "وحملناهم في البر"أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن ، ، "ورزقناهم من الطيبات"أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة.

القرآن : كتاب منهاج الحياة

ما يزال الكتاب مستمراً في بحثه ودرسه بتلك اللغة الأدبية البليغة التشويقية وهي ينير للقارئ حتى أدق التفاصيل اليومية التي يعيشها الإنسان، وكيف أن هذا القرآن لم يترك كبيرة، ولاصغيرة.

فندرك هنا بأن القرآن الكريم هو أول من ارتقى بالتنمية البشرية، وعلا من شان الإنسان والإنسانية، من خلال ما جاء فيه من تنزيه للبشر وسمو بالروح وتنقيتها من كل شوائب الرذيلة، فعلّم الإنسان الطهارة والعلو بصفاته حيث كرمة و أعلا مكانته بين الخلائق، ومازال حتى الآن والى أخر الحياة هو منبت الهداية والارتقاء الإنساني.

يذكر المؤلف كذلك في دراسته أن الحج وعرفه قد جمعت فيهما أهم ركائز الإسلام وأركانه فنجد التوحيد والصوم والصلاة و إنفاق المال والفداء والوقوف سواسية تتساوى القامات والنفوس وتخضع لله رب العالمين، وقد قال الترمذي : والعمل على حديث عبد الرحمن بن يعمر عند أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، أنه من لم يقف بعرفات قبل طلوع الفجر فقد فاته الحج ، ولا يجزئ عنه إن جاء بعد طلوع الفجر، ويجعلها عمرة وعليه الحج من قابل ، وعن وكيع قال : هذا الحديث أم المناسك،كما جعل ارتباط الحج بالوقوف على جبل عرفات هو ارتباط باستحضار التطلع إلى الصفاء ورسوخ العقيدة فلقد كان عرفات موقع التعارف لأبينا أدم بأمنا حواء وجعل التآلف والترابط بينهما هو من أسس العلاقة الإنسانية، فجمعكم بيوم عرفه هو للترابط والتآلف بين عامة المسلمين ولا يمكن لبشر أن يتخيل تجمّع البشر بهذا العدد الهائل وهم في خشوع و طمأنينة ورغبة واحدة تتمثل في التضرع والدعاء والقبول من عند رب العالمين، دون دين الإسلام الذي هو قادر على ذلك، وباعتبار الحج هو من أهم الركائز والشعائر قدسية عند الله فقد كان له الكثير من الخصوصية، ويستوعب المؤمن أن الله بين للإنسان طرقه التي يسلكها والعراقيل التي ستواجهه من عدوه اللدود، وهو إبليس اللعين الذي استكبر عن أمر رب العزة وهو رفض خلق الله للإنسان، فأراد أن يكون للإنسان عدواً ومولى للعاصيين، فيقول الله جل جلاله في كتابه الكريم:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (لأعراف:١٦)

هذا هو الشيطان فأي إنسان عاقل أمامه طريقان أحدهم به منحدر يخيل لناظره أنه سوف يوصله بسرعة، والطريق الآخر ممهد وليس به وإن كانت شبه انحنائه فأي

الطريقين يسلك الإنسان العاقل ، فالمؤمن كيس فطن وإلا فكيف يخاطبنا الله بقوله (يا أولي الألباب)أي هم أصحاب العقول المتفكرة النيرة.

ما قبل النهاية:

تعتبر كتب التنمية البشرية، من طرق العلاج النفسي الشخصية، فيكفي أن تتعرف على أحدها حتى تلتهم عيناك الصفحات وأنت تقرأ بلا كلل أو ملل لعلك تجد ضالتك، فمهما كانت الأمور صعبه متحدية للقدرات ستجد في كتابات الأخريين شيئاً من الطمأنينة التي تأخذك إلى عالم من الراحة النفسية،فهي دائما حديث هامس في أذنك بأنك إنسان ذو شأن في الحياة وان الحياة صنعت لأجلك، وعلى الرغم من ذلك فالأمر لا يحتاج منك أن تبحث عمّن يقول لك أنت كذا أو كذا، بل أنت من تحكم على وجودك وطباعك وان تثبت لك و للأخريين قدراتك على العمل والعطاء، وأن لا يكون المؤمن وهناً أو ضعيفاً كما ذكر الإمام الغزالى بقوله:

"التدين الحقيقي إيمان بالله العظيم والشعور بالخلافة عنه في الأرض،والتدين الحقيقي ليس جسداً مهزولا من طول الجوع، والسهر ولكنه جسد مفعم بالقوة التي تسعفه"

كما أن كتب (التنمية البشرية) قد تخرج منها بمعلومة مفيدة أو فكرة مغايرة، وقد يكون تصور لشيء لم يخطر ببالك، ولكن كما هي هادفة إلى التنمية البشرية فهي أيضا تأخذك إلى عالم من الارتباط الذهني والفكرة التي أخذت بـ(رينيه ديكارت)"أنا أفكر إذا أنا موجود" وهذا مخالف الإسلام فهل حقا نحتاج إلى هذه الكتب في حياتنا ومعنا خير الكتب و أبرأها وهو القرآن الكريم.

قرأت يوما في احدي المجلات موضوعاً كان بالنسبة لي غاية الأهمية واستوقفني كثيرا كما استفز مشاعري العنوان (قصائد من وحي القرآن للروسي إيفان بونين)للدكتور. إبراهيم محمود إستنبولي، كان في مخيلتي أن يصنف هذا الأديب من هواة الاطلاع المعرفي، حتى أدركت إنه كان شغوفاً بمكنون المحيطات، لكى يخرج قصائد بمثل هذا الأحكام، ولا أدرى كيف استخدم التناص إلى هذه الدرجة إنسان غير مسلم، فبرغم كل حيثيات التقدم التي بلغت الأفاق في هذا القرن، ما زال الإسلام

والدين نفسه وسنة رسولنا الكريم تثبت إن هذا العالم يسير في اتجاه واحد صنعه القرآن، أعتقد أن سحر القرآن وبلاغه البيان فيه والتي ظهرت لكل من تطلع لكلماته، لقد استشهد بآيات القرآن لكى يبين لنا روعة الكون، ونؤكد أنه لا يمكن أن تجد شبيها للآيات أو السور القرآنية مهما بلغت دقة المعاني وحرفة المبدع، أما بونين فليس غريبا عليه أن يأتي بمدح تجاه الإسلام وينصف صورته فهو من المولعين بالحركة التولستوية، و الثقافة الدينية هي أهم الثقافات التي تأخذ بيد الإنسان إلى مساحات كبيرة من التأمل والإبداع .

يعتبر كتاب (الارتقاء في درجات تلقى معاني القرآن)

الذي طرحته (مجلة الحوار) في سلسلتها الجديدة إضافة للمكتبة العربية و الإسلامية، من خلال كتاب يحمل فن التدبر في قراءة القرآن و أهمية علم القراءات لهذا الكتاب العظيم كتاب الله، كتاب التحولات الكبرى في حياة الإنسان، كتاب الهدى، كتاب المنهاج القويم، لقد كانت أهم مشتملات الكتاب أن تناول على ثلاثة محاور جوهرية: مجال العقيدة والفلسفة وعلومها، أثر الجانب الفقهي و العلمي فيما قدمه القرآن للعالم، ثم أخيراً معاني جوهر الآيات في سورة البقرة.

أشار أستاذنا الكريم إلى بعض النقاط ذات جوهرية المعنى في سحر القرآن وبلاغه البيان، وبالخصوص في آية الكرسي وسورة البقرة، وكما ذكر أبي بكر محمد بن عزير السجستاني:

آية القرآن كلام متصل إلى انقطاعه. وقيل: معنى آية من القرآن أي جماعة حروف. يقال: خرج القوم بأيتهم أي بجماعتهم.)

قال الشاعر:

(خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح المطافلا) (أي بجماعتنا).

كما ذكر أن معاني الحروف في القرآن لها دلائل جوهرية كما ذكر :

(الم: وسائر حروف الهجاء في أوائل السور، كان بعض المفسرين يجعلها أسماء للسور، تعرف كل سورة بما افتتحت به. وبعضهم يجعلها أقساما، أقسم الله جل وعز بها لشرفها وفضلها، لأنها [مبادي] كتبه المنزلة، ومباني أسمائه الحسنى، وصفاته العلا. وبعضهم يجعلها حروفا مأخوذة من صفات الله جل جلاله كقول ابن عباس

رضي الله عنه في (كهيعص): إن الكاف من كاف، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق.

لقد كان كتاب (الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن) أيقونة البعث للنفس البشرية في هذا العصر الذي ظهرت فيه الفتن وانزوى فيه الحق خجلا، فلم يكن الكتاب تعريفا بالقرآن ككتاب رباني فحسب، بل كان تعريفاً بالإسلام الذي أشاع نور اليقين للعالم، و أرسا أيضاً مفاهيم هذه الحقيقة وقدم لنا عباقرة الإنسانية، و بظهور الإسلام بحضارته برع المسلمون سواء أكانوا عرباًن أو غيرهم من أمة الإسلام في العلم وبنوا الحضارة، لا كما سلبها الغرب بالهمجية والوحشية التي كانت تتفشى فيهم، لقد حمل الكتاب معيناً على عظمة التلقي للقرآن وفهم لبنة الدين الإسلامي، والكتاب في جملته، شيّق الطرح، معين على روح التلقي.

.

منهجيّة الفهرس وروح الكتاب
في كتاب الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن

د. سليم القسطي
أستاذ اللغة العربية
باحث وأكاديمي جزائري مقيم في فرنسا
دكتور في الأدب العربي القديم- جامعة السوربون ، باريس

كلمة أولى عن قيمة هذا الكتاب

تمتعت بقراءة كتاب الروائي السوري عبد الباقي يوسف "الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن"، وأحسست وأنا ألتهم صفحاته أنني أرتقي في فهم معاني القرآن التي تُترجم كل يوم في حياتنا، فنشعر أن وجودنا يستمد وجوده من هذا الكتاب العظيم. وإن اول فقرة في مقدمة الكتاب تلخص لنا الغاية من هذا الذكر الحكيم:(
القرآن الكريم هو دعوة للإنسان كي تستيقظ حواسه على بركات الحياة فيشعر بجدية وحميمية " ومسؤولية العلاقة بينه وبين مقومات حياته، وبذات الوقت يحافظ على حياة الآخرين)ص. ٧

بعد هذه القراءة لهذا الكتاب ذي الثلاثمائة صفحة، رجعت إلى ما قبل المقدمة، أقصد إلى الفهرس،
فوجدت فيه إحدى دعائم البحث المستقيم، وهو التوازن في عدد العناوين، وعلاقتها ببعضها.
الكتاب
يحتوي قسمين: القسم الأول يراسل القسم الثاني في هدوء وسكينة. لقد عنون الكاتب قسمه الأول "من نور السماء إلى ظلمة الأرض"، هو عنوان يضمّ مقابلة بديعة بين جملتين نور السماء، أعني أمرين نورانيّة رب العالمين ونورانيّة كتاب الأنام. فالله نور السموات والأرض و القرآن نور يهدي إلى الصراط المستقيم
أما ظلمة الأرض فهي ظلمة الكوكب وظلمة ساكنيه، الظلمة التي زاوجت بين ظلام الأرض وظلم العباد أنفسهم وبعضهم بعضا. فنور النور لم يبق في السماء، بل أنزله الله في ليلة مباركة

على محمد البشيرالنذير المنير. أنزله على الإنسان لهدايته وإخراجه من الظلمات إلى النور، من شقاء الأرض الفانية إلى سعادة السماء الأبدية، من هباء دنيا دنيئة إلى خلود آخرة باقية.
وهذه هي غاية القرآن التي جاءت كعنوان للقسم الثاني من هذا الكتاب:
"فضل القرآن على الإنسان".

مقدرة الكتاب على قوة التأثير في قارئه

في هذا البحث المتواضع، سأحاول تحليل
الفهرس واضعا بين عينيّ أمرا هاما وهو علاقة قسمَي الكتاب ببعضهما البعض. فالفهرس يُقرأ قسماً
فقسما، وتُقرأ فصوله في أقسامها، لكن ما يميّز عمل الأستاذ عبد الباقي يوسف هو إمكانية السفر بين
الفصول دون الرضوخ إلى أقسامها، وهذا هو روح الكتاب من خلال فهرسه. فلنبدأ الرحلة:
إن هناك تناسقا بين القسمين وفي فصوله، ففي القسم الأول نجد ستة فصول وفي القسم الثاني نعثر على
خمسة فصول، قد نجعلها ستة إذا ما اعتبرنا الاستهلال الذي تحدث فيه الكاتب عن القرآن وكلمات
وآياته وحروفه فصلا بعينه. ففي الفصل الأول **"كتاب التحولات الكبرى"** في القسم الأول، نجد الاستهلال" في القسم الثاني، وكأن الكاتب يريد أن يعرّف القارئ بهذا الكتاب الذي يعتبر بداية التحولات الكبرى في حياة الإنسان: من فترة الركود والجمود والظلم إلى عالم الحركة والتطور والضياء.
يقول الكاتب في الفصل الأوّل: "يمتلك القرآن الكريم مقدرة هائلة على إمكانية التجدد بل يتجاوزه
ليجدد قارئه كذلك، عندئذ لا يكتفي القارئ بأنه يقرأ كتابا متجددا، فحسب بل يشعر بأنه يتجدد مع كل
قراءة جديدة لهذا الكتاب")ص. ٦١ (. ثم في حديثه في الاستهلال، يذكّر بقيمة الفرقان: "لو لم تكن
حاجة الانسان إلى القرآن بلغت ذروتها لما أرسل الله إليه، إنه رحمة من الله بالإنسان ونور حل على
ظلمتي الإنسان والأرض معا")ص. ٦٣١(..

وفي الفصل الثاني **"حدود الله... حدود الإنسان... في القرآن..."** في القسم الأول، نجد **"حاجة الإنسان إلى القرآن"** في القسم الثاني. وأول هذه الحاجات أن يعرف الإنسان حدود ربه وحدود الناس ولن يجد ذلك إلا في طيات الذكر الحكيم، فهل من فضل أعظم من هذا؟ يقول الكاتب:
"يحتاج الإنسان أن يكون دائم الذكر لأفضال الله عليه، يحتاج أن يتفكر في آيات هذه الأفضال ما بوسعه حتّى يدرك قيمة العناية الإلهية به وحتى يدرك قيمة ذاته. إنّه هنا يدرك قيمته عند ربه (ويدرك قيمته عند ذاته")ص. ٦٤٣
تحدث الكاتب في فصل **"حدود الله... حدود الإنسان... في القرآن..."** عن مهبط الوحي، مكة المكرمة، فقال
عنها: " عندما أتحدث عن مكة المكرمة، لا أشعر بأنني أتحدث عن قرية محلية في الوطن العربي أو حي في شرق الكرة الأرضية الأوسط بقدر ما ينتابني شعور بأنني أتحدث عن قرية عالمية تتمتع بكل مقومات التأثر والتأثير في العالم بمختلف تركيباته وشعوبه وقبائله و ألوانه"

)ص. ٩٣ (. فمكة إذن هي المكان الذي اختير لولادة المصطفى الكريم، ومنها بدأت مسيرة الإسلام على خطى القرآن الحكيم. هاجر الرسول "ص" من مسقط رأسه ومن مهبط الذكر إلى المدينة لإكمال الرسالة الربانية. وبعد أعوام، عاد إليها معززا بالنصر، فدخل الناس الإسلام زمرا وزرافات. و في مكة، أنهى الرسول حياته، وأكمل رسالة ربه ،حين خطب خطبته الشهيرة مودعا الدار الفانية.

ولقد ذكّر الرسول "ص" في هذه الخطبة بحاجة الإنسان إلى القرآن الكريم. فإن نشبّث الإنسان بالذكر الحكيم لن يضل بعد أبدا قال أديبنا عبد الباقي يوسف : "إن خطبة الوداع الثمينة التي غلبت عليها النزعة الإنسانية بامتياز هي بمثابة مرآة يرى الإنسان نفسه في ثنايا سطورها]...[. تبين لنا هذه الخطبة - الجوهرة - أن أفضل انتباه يكفل للإنسان التزامه لحدود الله هو انتباهه إلى أهمية ممارسة مزايا إنسانيته، وفقط عندما يلتزم الإنسان بحدود إنسانيته سيولد من ذلك التزام لحدود

(النفس، حدود الآخرين، حدود الله")صص. ٦٤١ -641

وفي الفصل الثالث **"خصائص العلاقة بين الإرسال الالهي والتلقي البشري"** في القسم الأول، نعثر على عنوان **"ارتقاء قارئ القرآن في درجات متعة العطاء"** في القسم الثاني. فحين نقرأ تمتع خصائص هذا الإرسال من خلال ثلاثية هذه العلاقة بين الله كمرسل وبين الرسول كمبلغ و بين الناس كمتلقين بمزايا

الخطاب التقوى الذي هو تكريم للإنسان الذي أكرمه الله تعالى بقسمة العقل")ص. ٤٧ (، فأنت تجد

صدى هذا التلقي البشري في ارتقاء يمس درجات العطاء، وهذا العطاء يعرفه أديبنا : "والعطاء لا ينحصر في لون واحد، بل يشمل كافة ألوان العطاء، فهناك العطاء المعرفي والعطاء الفكري والعطاء

الفني والعطاء الطبّي والعطاء الأخلاقي والعطاء المادي" ص. ١٥٦

من روح الفهرس إلى روح الكتاب

في فصل "خصائص العلاقة بين الإرسال الإلهي والتلقي البشري"، كتب عبد الباقي يوسف: "لا يتلقى قارئ القرآن لباب ما يقرأ لمجرد التلقي فحسب، بل إن هذا التلقي ينعكس على سلوكه من أقوال وأفعال ص. ٥٥

(. ومن هذه السلوكات، العطاء والجود الذي نجد قارئ القرآن يحاول الارتقاء في درجاته. (ومن بين هذه العطاءات التي تظهر أحسن المعاملات الهدية. إن القرآن الكريم هدية رب العالمين لخلقه فيها ما لذ وطاب لهذا كانت الهدية أمرا محبوبا حث عليه الإسلام: "حظيت الهدية بموقع طيب في الإسلام

الذي وجّه بأن الهدية يمكن لها أن تعزز مشاعر المحبة بين الناس". ص. ١١٦

وفي الفصل الرابع **"قارئ القرآن وفق الموقف"** في القسم الأول، نجد **"قارئ القرآن ومهارة قوة**

الملاحظة" في القسم الثاني. فالحياة مواقف وما أكثر هذه المواقف في القرآن الكريم! مواقف إيجابية

وأخرى سلبية، على قارئ القرآن أن يفقهها ويعيشها بفهم معانيها، وهذا الفهم يبدأ بمهارة قوة الملاحظة التي تعني التدبر في معاني القرآن الكريم: فهناك القراءة البصيرة الواعية التي تتعدى العين المجردة لتطأ
عوالم تتجاوز الحواس الخمسة. يقول الكاتب: "إن قارئ القرآن يسعى حتى يجعل لنفسه حضورا في
الحياة]...[. إن أهمية أي انسان أو قيمته تكمن في المواقف التي يقفها هذا الإنسان من مجريات الحياة ومن دقائق حياته الاجتماعية اليومية التي يمارسها.)ص. ٥٩ (. ثم في القسم الثاني نقرأ: "قارئ القرآن المواظب على قراءته بتدبر يكتسب مهارات متعددة يستخدمها في حياته اليومية")ص. ٦٧٤
الإنسان مواقف والموقف هو بصمته في الحياة، لهذا وجب على قارئ القرآن أن يفقه المواقف التي
جاءت في القرآن الكريم حتى يكون عضوا فعّالا في المجتمع. يجب أن يكون كالمصطفى قرآنا يمشي وأن يترجم القراءة القرآنية في حياته في شكل مواقف:
"إذن نحن نعيش مجريات هذه الحياة الممتلئة
بالأحداث والأفكار والمذاهب والميولات، ولا بدّ أن نتفاعل مع كل ما يجري فينا ومن حولنا، فأن تكون بلا موقف ،
يعني أنك لا تلزم الحياة وأن الحياة لا تلزمك، لأنك عند ذاك لا تكون فعالا فيها ولا تكون فعالة فيك
ص. ٥٩ (. وإن العين هي التي تساعد الإنسان على ملاحظة المواقف وتتبعها، "لأنها العضو الأكثر حركة
في الجسد، وهي العضو الأكثر حساسية، وعن طريق العين تنفعل الأعضاء كلها سواء سلبا أو إيجابا
ص. ٦٧٤ (. إن القرآن مليء بالمواقف التي تساعد القارئ أن يرتقي في درجات التفكر، وهذا التفكر
يبدأ بالنظر الثاقب والملاحظة الماهرة. ولقد ذكر الكاتب آيات كثيرة حث فيها الله قارئ القرآن إلى النظرإلى خلقه، النظر إلى الأمم السابقة التي فلحت، أو جاءها العقاب الوخيم)ص. ١٧٥
فالمواقف إذن هي موطن جمال أو قبح لا تفقهها إلا العين البصيرة. قال الكاتب: "العين المواظبة على قراءة القرآن تمسي عينا قرآنية. تنظر نظرات قرآنية مما آتاها الله من خور القرآن. العين المواظبة على قراءة القرآن تأنس النظر إلى كل موطن جمال وتنفر النظر إلى كل موطن قبح، تأنس النظر إلى كل موطن طيب وتنفر
النظر إلى كل موطن خبيث)ص. ١٨٦
وفي الفصل الخامس **"معالم الطريق ومنعرجات الفوضى"** في القسم الاول، نجد **"القرآن الكريم ومنهج الحياة"** في القسم الثاني". فالعارف للمنهج القرآني القويم يبتعد عن الفوضى التي يزخر بها العالم اليوم
لهجره تعاليم القرآن الحكيم. قال المؤلف في الحديث عن الإنسان: "المفهوم الأولي العام لديه هو الفوضى وعدم رتابة، بناء على جهله للمصير الذي يؤول إليه سواء بعد نصف ساعة أو بعد نصف قرن أو بعد ملايين الأعوام القادمة. ومن هذه النقطة، ينطلق الإنسان ويقرر ما الذي سيكون في الحياة هل سيلبث في حالة تيه وشتات أم أنه سيحدد لنفسه أهدافا وقيما ورتابة يلتزم بها")ص. ٦٦٥ (. وإن هذه الاهداف يجدها في القرآن الكريم الذي هو منهج الحياة السوية:
"يجد قارئ القرآن منهج حياة متكاملة في القرآن الذي يتعرض لكل صغيرة وكبيرة تمس مقومات الحياة البشرية. إنه كتاب تحليلي مفصل عن صلب علاقة
(الإنسان بالحياة، علاقته بالآخرين علاقته بالله")ص. ٦٥١

لقد أرسل النبي إلى عالم عمّت فيه الفوضى ، الفوضى الفكرية والأخلاقية والدينية فكانت الآيات القرآنية معالم
على الطريق، وكلما ارتقى الإنسان في درجات تلقيه للقرآن كلما خرج من ظلام الفوضى. قال المؤلف اليوسف : الإنسان كلما استوعب هذه الآيات من الله اتّسعت مداركه وانفتح نضجه ونظم حالة الفوضى في كوامنه. هذا التنظيم
الذي يهب لحياته معنى ولوجوده كإنسان قيمة غنية. إننا نحتاج أن نكون مع تعاليم الله، نحتاج أن نتعلم من الله، من صلب علاقته بالإنسان ومن صلب علاقة الإنسان به، نحتاج أن ندنو من رحاب فالق الإصباح".)ص ١٦١.
وهذه التعاليم موجودة في القرآن الذي هو منهج الحياة الكريمة. ولعل القرآن الكريم حذر من أمر
هو مصدر كل فوضى وهو اتباع الهوى والملذات: "إن قارئ القرآن الذي هو مع البررة لا يعطي نفسه كل هواها ولا يجري خلف الملذات. إنه كائن غير مفرط في الحصول على متطلباته، ودوما هو يجاهد ه وى النفس حتى لا يقع في أسرها. إنك عندما تعطي نفسك كل هواها سوف تطغى عليك")ص. ١٣١ (، و طغيان النفس على
صاحبها هي رأس كل مصيبة وشرارة كل فوضى
وفي فصل **"التلقي القرآني وترويض النفس"** في القسم الاول، نلتقي بفصل **"مشكاة قراءة تدبرية**
لسورة البقرة" في القسم الثاني. والكاتب لم يختر عفوا هذه السورة الطويلة لتحليل معانيها ، بل لأنه
عَلم أن فيها معاني رائعة تساعد الإنسان على ترويض النفس. يقول المؤلف ببديع لغته الروائية التي امتاز بها هذا الكتاب القرآني الأدبي : تنتعش نفسه بقراءة القران، ويرتاح سمعه بالإصغاء إلى تلاوة آياته. إن كل كلمة يقرأها أو يسمعها تجعله أكثر توازنا وأكثر هدوء ا
ص. ١٩١ (. ثم يتحدث عن سورة البقرة قائلا: "إن سورة البقرة تضع الانسان الجديد أمام مرآة ذاته
وتجعله ينظر إلى نفسه جيدا بكثير من الامعان. إنها تفسح أمامه آفاق الحياة ليكتشف مدى نقاء هذا
الإنسان. فهي سورة قانونية تشريعية فقهية و نفسية".ص. ١٩١
إن التلقي القرآني هو رياضة للنفس فالقرآن يحمي الانسان من الوقوع في الخطأ ويساعده على ترويض نفسه وإتيان
الخيرات: "النفس تتبع توجهات صاحبها. لا توجد نفس لا ترضخ لأمر حاملها". ص. ١٢١ (.
إن القرآن الكريم هو المعين أمام شهوات النفس ووساوس الشيطان، ففي القرآن زاد لا ينضب: "عندما يتقدم الانسان في مراحل قراءة القرآن يتعلم كيف يمضي بهدي القرآن، كيف ينظر إلى (مقومات الحياة ومجريات الأمور من حوله نظرات قرآنية")ص. ٦٢٦

لهذا اختار الكاتب سورة البقرة يتخذها منهجا للتلقي القرآني من خلال التدبر في القرآن "ليس لأنها أطول آيات القرآن الكريم فحسب، بل لكونها أكثر آياته إسهابا في التعرض لتفاصيل الحياة اليومية للناس")كما قال .(.

وبعـد ،،،

إن القسمين الثريين اللذين برقعا الكتاب متصلان كالجسد والروح، فكما يحتاج الجسد للروح كي ينمو في رحاب الإيمان والسعادة، يحتاج القسم الأول لأخيه الثاني كي تشرق الإجابات وتعم

الفوائد. وقد أحيط القسمان بمقدمة بارعة وخاتمة رائعة تعين القارئ على الارتقاء في درجات تلقي ثمرات هذا الكتاب المفيد. ذكر المؤلف في فقرته الثانية من المقدمة: "يحتاج الإنسان إلى تعدد القراءات حتى يبلغ مراحل متقدمة من الارتقاء إلى تلقي رسالة القرآن، عند ذلك يغدو القرآن مرشدا له في وقع حياته، في علاقة جمالية تكاملية كمتلقٍّ لرسالة القرآن، وبين الله، (مرسل هده الرسالة)ص. ١

فالقراءات تتعدد، ولكن هدفها واحد معرفة أسرار هذا الذكر الحكيم. وقبل ان تكون القراءات، يجب أن يكون هناك تهيئ لهذا التلقي، وإلا تكون هذه القراءة مجرد نطق كلمات خاوية من معانيها. ذكر المؤلف في فقرته الثانية من الخاتمة :" إن قراءة القرآن تختلف من موضع إلى آخر، من مناسبة إلى أخرى، من حالة نفسية معينة يكون فيها الإنسان إلى أخرى. إن اكتمال عوامل التهيئة هو اكتمال لعملية تلقّي الدرس القرآني".